البـــاب الاول

طريق الهند

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

الخليج الفارسي

(١) نظرة في جغرافية الخليج :

الخليج الفارسي فجوة بين هضبتي ايران وبلاد العرب ، تبلغ مساحتها ٩٧٠٠٠ ميل مربع ، تكتنفها الجبال من الشرق ومن جهة عمان في الجنوب الغربي . وتقع سواحل الخليج في ثلاثة أقسام : السواحل العربية والسواحل الشمالية والسواحل الفارسية (١).

اما السواحل العربية فتشتمل على الكويت والاحساء والقطر والسواحل المهادنة وسلطنة مسقط ، وهي منبسطة تكتنفها التلال ، وأكثرها قاحل الا بقاعاً صغيرة كالارض الكائنة قرب الجهرة ، وواحتي الاحساء والقطيف اللتين تنبت فيهما النخيل وتغمرهما مياه الينابيع فتجعل منهما أرضاً صالحة لزراعة الرز ، ووادي المليه الواقع في طرف الاحساء الشمالي وبقاعاً اخرى خصبة كائنة على نهايات الوديان القريبة من أراضي عمان . وأهم ما في الجزء الجنوبي منها هضبة تمتد جنوباً موازية للساحل حتى تصل رأس الحد ، يفصل شمالها عن البحر سهل الباطنة الذي يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً وينتهي بالقرب من مسقط ، وفيه بقاع خصبة تكثر فيها واحات النخيل . وفي هذا القسم تعاريج كثيرة لا يصلح منها لرسو السفن غير البحرين والكويت ومسقط ومطره ؛ ويحاذيه عدد غير قليل من الجزر أغلبها صخرية جرداء قائمة في البحر

---

(١) ص ٢ من : Wilson, Lt-Colonel Sir Arnold, T., The Persian Gulf (Oxford 1928)

إلا جزيرة البحرين التي تبلغ من الطول ثلاثين ميلاً ومن العرض عشرة أميال وفي نهايتها الشمالية قطعة خصبة يبلغ عرضها ثلاثة أميال مغطاة باشجار النخيل .

وتتألف سواحل الخليج الشمالية من سواحل العراق وعربستان المكوّنة من سهول مستوية جرداء ، إلا ضفاف شط العرب و بعض شواطيء كارون . والسواحل التي في رأس الخليج منخفضة الاراضي تكسوها المستنقعات ، وأهم فجواتها مصب شط العرب وخور موسى وخور الزبير . وليس في هذا القسم من المراسي غير مرسى بندر ديلام للسفن الصغيرة . وأهم الجزر المحاذية له جزيرة بو بيان الواقعة في الزاوية الغربية الشمالية وجزيرة عبادان الكائنة بالقرب من مصب شط العرب . وأهم موانيه اثنان ميناء البصرة وميناء المحمرة ، يقع الاول على بعد سبعين ميلاً من مصب شط العرب ، والثاني على ترعة الحفار عند ملتقى نهر كارون بهذا الشط وقد أصبح في استطاعة البواخر البحرية الكبيرة الوصول الى هذين الميناءين بعد حفر سد الفاو عام ١٩٢٧ .

وتمتد السواحل الفارسية بين بندر ديلام وحدود بلوجستان ، وفيها عدة مرافيء متصلة بطرق القوافل التي تخترق هضبة ايران ، أهمها : مرفأ بوشهر الذي يبعد مائة وأربعين ميلاً عن مصب شط العرب ، وبندر عباس وهو الميناء الطبيعي للقسم الجنوبي الشرقي من بلاد فارس لاتصاله بطرق القوافل ، ولنجه التي تبعد ستة وتسعين ميلاً عن بوشهر ، وجسك الواقعة جنوب شرق بندر عباس . ويمتد بمحاذاة هذه السواحل عدد من الجزر منها جزيرة هرمز والجزيرة الطويلة (قشم) ولرك وشيخ شعيب وقيس وهنجام .

وأغلب سكان السواحل الفارسية عرب امتزجوا بالفرس واستعجم معظمهم فنشت بينهم اللغة الفارسية ؛ ويرجع أصلهم الى قبائل كعب التي هاجرت من نجـد الى ضفاف شط العرب وعربستان في القرن السابع عشر[١] ؛ ومنهم من ينتسب الى الدواسر والعجمان والبو علي وشمر ، وقد عبروا الى هذه السواحل من السواحل العربية المقابلة . وفي السواحل الواقعة على مقربة من بلوجستان قبائل عربية نزحت اليها من السند ، قيل انها من العرب الذين افتتحوا الهند في العهد الاموي .

(ب) فذلكة في تاريخ الخليج :

لو ألقى المرء نظرة على خليج فارس بما فيه من جزر قاحلة مبعثرة قرب سواحله الجرداء لوجد ان للانكليز في كل زاوية من زواياه مركز نفوذ وان اليد المستعمرة قد قبضت على رقاب معظم الشيوخ والامراء فيه فجعلتهم طوع ارادتها . ويرجع تاريخ هذا الاستعمار الى بداية القرن السادس عشر و يتصل باكتشاف رأس الرجاء الصالح واستعمار الهند .

كان الخليج بعد سقوط الدولة العربية ساحة للمعارك التي نشبت بين عدد كبير من شيوخ القبائل العربية الذين تنازعوا السلطة فيما بينهم وأغاروا على بعضهم لامتلاك الاراضي . وبينما هم في نزاعهم هذا اذ داهمهم البرتغاليون

---

(١) Wilson ص ١٨٢

(٢) ص ٣٤ من : Persian Gulf. Handbook Prepared under the direction of the Historical Section of The Foreign Office. No. 76. London, His Majestys Stationary Office, 1920

واستفادوا من تشتت قواهم فاستولوا على كثير من المراكز المهمة في الخليج .

ثم جاء الانكليز بعد ذلك وتعاونوا مع الفرس فتمكنوا من انتزاع النفوذ من أيدي البرتغاليين . وجاء في هذا الاثناء التاجر الهولندي يبحث عن المال فانضم الى جبهة الفرس والانكليز .

ولما هوت الامبراطورية البرتغالية على البرتغاليين الادبار فاصبح الخليج في قبضة الفرس . ثم آل النفوذ فيه الى الانكليز وقوى سلطانهم في جميع أرجائه سيما بعد ان تحولت مصالحهم التجارية الى مصالح سياسية عقيب استعمارهم الهند .

وفيما يلي نبذة عن تاريخ أهم مراكز الخليج تبين للقارئ كيف سار الاستعمار في جهاته وكيف انتهى الامر بسيطرة الانكليز على شؤونه .

هرمز : كان اسم هرمز يطلق على مدينة قائمة على الساحل المقابل لجزيرة هرمز في محل يدعى الآن ميناب ، قد شيدها الملك اردشير بابكان في أوائل القرن الثالث[1] . ثم بنى العرب في القرن العاشر مدينة سميت بعين الاسم (اكتشفت آثارها شرق بندر عباس) بقوا فيها الى ان أخرجهم منها المغول فالتجأوا الى جزيرة هرمز الحالية وكانت تدعى يومئذ زايرون أو (جيرون) فبنى فيها أميرهم قطب الدين في القرن الثالث عشر مدينة أطلق عليها اسم هرمز تخليداً لذكر موطنهم الاول[2] .

---

(١) Wilson ص ١٠٢ و ص ٤١٣ ج ٢ من : Curzon, Hon. G. N. (M. P.) Persia and The Persian Question. 2 Vols. London 1892

(٢) Curzon ج ٢ ص ٤١٤ و Wilson ص ١٠٤ . وفي هذا الكتاب معلومات وافية عن تاريخ هرمز

وامتد سلطان الامارة العربية الجديدة الى البحرين و باقي مراكز الخليج وأصبحت صاحبة النفوذ في السواحل الفارسية والعربية وبقيت زاهرة بعمرانها حتى احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٥ فجعلوا منها مركزاً تجارياً لهم بقوا فيه الى ان أخرجهم منها الشاه عباس الاول بمعونة الانكليز عام ١٦٢٢[١]. ثم أسس الشاه عباس الاول مدينة بندر عباس (نسبة اليه) في محل مقابل للجزيرة يدعى كمرون[٢]. وبذلك خسرت هرمز أهميتها التجارية فهجرها أهلها فاصبحت صخرة جرداء لا أهمية لها الا لموقعها في مدخل الخليج[٣]. وقد بقيت بندر عباس مركزاً للتجارة مدة قرن ؛ وأسس فيها الانكليز والهولنديون والفرنسيون مراكز تجارتهم ، وكان للأولين فيها امتيازات خاصة لأنهم ساعدوا الشاه في طرد البرتغاليين ، منها انهم كان لهم الحق في رفع رايتهم على بيت وكيلهم فيها[٤]. فلما عمت الفوضى بلاد فارس بعد وفاة نادر شاه غادر التجار الاجانب بندر عباس وأسسوا مراكز تجارتهم فى البصرة وبوشهر[٥].

مسقط : اما مسقط فهي جزء من عمان ، انفصلت عن الدولة العباسية فى القرن العاشر[٦] وكونت من نفسها امارة مستقلة كان يحكمها أول الامر امام ينتخبه الشعب ، ثم انحصرت الامارة فى عائلة السيد ناصر بن المرشد

---

(١) ص ٢٧٩ ج ٢ من : Sykes, A History of Persia. 2 Vols.

(٢) Curzon ج ٢ ص ٤١٧ — ٤١٨

(٣) وهي تحريف كلمة « كمرك » التركية . Sykes ج ٢ ص ٢٧٩

(٤) Curzon ج ٢ ص ٤٢١

(٥) Wilsen ص ١٨٧ و Handbook

(٦) Handbook ص ٤٠

(١٦١٨ – ١٦٤٤) .

ولم تكن مسقط على شيء من الاهمية حتى اتخذها البرتغاليون مقراً تجارياً لهم بعد خروجهم من هرمز سنة ١٦٢٢ . فلما تضاءل نفوذهم نجح أهل البلاد فى طردهم منها عام ١٦٥٠ بعد نزاع دام زهاء عشر سنين[١] ثم راحوا يطاردونهم فى البحار حتى انتزعوا منهم المراكز التجارية فى سواحل افريقية الشرقية . قويت يومئذ شوكة عرب عمان فخافهم شاه ايران وطلب الى شركة الهند ان تساعده فى القضاء عليهم فلما أبت هاجمهم بجيشه واستولى على مسقط عام ١٧٣٧ . وبقيت هذه المدينة خاضعة لفارس حتى قام من بين أهلها رجل عصامي يدعى أحمد بن سعيد كان فى أول أيامه يرعى الجمال فجمع شتات قومه وطرد الفرس فانتخبه الشعب اماماً تقديراً لفضله وهو رأس العائلة السعيدية[٢] .

وفى سنة ١٧٩٣ ثار سلطان بن أحمد على عمه الامام فاستولى على مسقط وعلى ما يجاورها من الموانيء كمطره وبرقه وأقام له فيها إمارة مستقلة هي سلطنة مسقط ، ولقب بالسيد سلطان وترجع أول صلات بريطانية بمسقط الى عهده[٣] .

ولما قتل السيد سلطان فى المعركة التي نشبت بينه وبين الجواسم سنة ١٨٠٤ خلفه ابنه السيد سعيد ، وقد دام حكمه حوالي الخمسين سنة نشبت

---

(١) Wilson ص ١٥٤ — ١٥٥

(٢) ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ من :

Miles, The Countries and Tribes of The Persian Gulf. Vol. 11

(٣) Wilson ص ٢٣٢

خلالها بينه وبين الوهابيين معارك كثيرة كانت مما ساعد على امتداد نفوذ الانكليز في بلاده فقد اتخذوا منها ذريعة للتدخل في شؤون العرب تدخلاً ظاهره الرغبة في التوسط للصلح بين المتحاربين وباطنه العمل على بسط نفوذهم وسيادتهم في البلاد . وقد استخدم الانكليز سفن مسقط لاخضاع عرب السواحل وبسط نفوذهم الاستعماري في الخليج[1] .

ومما سهل للانكليز التدخل في شؤون هـذه السلطنة والسيطرة عليها انشقاق عائلة الامارة ، فكانوا يؤيدون من يأنسون منه الخضوع لمشيئتهم من أفراد العائلة ويساعدونه في تولية الحكم ويقيمون في وجه الآخرين العراقيل أو لا يعترفون بهم . وقد توسلوا بالمعاهدات لتحقيق مآربهم فعقدوا مع السلطان سلسلة اتفاقيات استلوا في كل واحدة قسطاً من سيادته ؛ ففي سنة ١٨٦٤ عقدوا اتفاقية مد الاسلاك البرقية وفي سنة ١٨٦٥ عقدوا اتفاقية اخرى لعين الغرض وفي سنة ١٨٧٣ عقدوا « معاهدة مقاومة تجارة الرقيق » اشترطوا فيها على السلطان ان يسمح لهم باقامة ثلة من الجند في دار وكالتهم ، ثم عقدوا معاهدة « صداقة وتجارة » تعهد فيها السلطان ان لا يمنع توريد أو تصدير أي نوع من المواد التجارية وان لا يضع الرسوم الكمركية الا بموافقتهم . وكانت الحكومة الانكليزية قد نظرت قبل عقد هذه الاتفاقية في أمر رفع القناع عن أغراضها الحقيقية واعلان الحماية على مسقط بالنظر للرغبة التي أظهرتها فرنسة في بسط نفوذها هناك ، لكنها فضلت الاستمرار على عقد المعاهدات فعقدت في سنة ١٨٩١ معاهدة جديدة أخذ

---

(١) Miles ص ٢٢٥ و Curzon ص ٤٣٦

فيها السلطان على نفسه « وخلفائه وذريته العهود بان لا يتنازلوا عن أي جزء من أراضي امارتهم ولا يؤجرونه أو يبيعونه أو يأذنون باحتلاله لأحد غير بريطانية العظمى »[١] . وكانت الكلترة بعد سنة ١٨٧٣ تدفع الى السلطان مساعدة مالية سنوية اعتبرها أجراً لمساعدته اياها في مقارعة تجارة الرقيق واعتبرتها هي والدول الاوروبية الاخرى دليلاً على خضوعه وتابعيته لها[٢] .

البحرين : وهي الجزائر المشهورة بتجارة اللؤلؤ ؛ يبلغ طول أكبرها ثلاثين ميلاً وعرضها عشرة أميال وفيها مدينة البحرين (أو المنامه) والمحرق والرفاع والحد والبديع ، ويبلغ عدد سكانها المئة الف نسمة[٣] . وقد ذكر الطبري ان القبائل العربية نزحت اليها في القرن الثالث قبل المسيح ، وبقي الامراء العرب يحكمونها حتى أوائل القرن السادس عشر حينما استولى عليها البرتغاليون بعد ان خربوا المنامه سنة ١٥٢١[٤] . ولا تزال آثار حصنهم فيها باقية قرب « البلد القديم » .

بقي البرتغاليون في البحرين حتى أخرجهم منها الشاه عباس الاول سنة ١٦٢٢ ، وقد حكمها الفرس حتى عام ١٧٨٣ حيث استولى عليها عرب العتوب بعد ان عبروا اليها من الزبارة المقابلة لها على الساحل العربية . ثم

---

(١) Wilson ص ٢٣٧

(٢) ص ١٩٦ من : Earle, Turkey, The Great Powers and the Begdad Railway

و ص ٨ من : Dunn, British Interests in the Persian Gulf. New York 1924

(٣) Handbook ص ٣١ (احصاء سنة ١٩٢٠)

(٤) Wilson ص ٢٤٥ و Miles ص ١٥٤

هاجم البحرين بعد ذلك أمير مسقط فاستنجد أهلها الوهابيين فردوا الامير عنها ولكن هؤلاء استولوا عليها ولم يخرجوا منها الا عام ١٨١٠[١].

ان البحرين لم تكن مطمح أنظار أهل نجد وعمان فحسب فقد طمعت بالاستيلاء عليها فارس والدولة العثمانية وانكلترة حتى أصبحت الجزيرة تتخبط بين أهواء الطامعين حتى قيل ان شيخها كان يرفع فوق قلعته في بعض الاحيان أعلام الدول الثلاث[٢]. ولما كانت انكلترة أشد بأساً وأقوى عزماً من الدولتين الاخريين فقد ظفرت بمقاصدها، وكانت قد اتبعت مع البحرين عين الطريقة التي اتبعتها في جهات الخليج الاخرى فربطت الشيخ بسلسلة من المعاهدات كانت أولها معاهدة عقدتها سنة ١٨٢٠. ثم أرادت بعد منتصف القرن التاسع عشر ان تعلن حمايتها على الجزيرة تخلصاً من منافسيها، ولكنها عادت ففضلت الحماية المستورة فعقدت مع الشيخ عام ١٨٦١ معاهدة ألزمته فيها ان يعرض كل ما يقع له من المشاكل على المقيم البريطاني وان يقنع بحمايتها فلا يحاول اعلان حرب أو مهاجمة أحد[٣].

زار الكولونيل بلي (Bilty) المقيم البريطاني في الخليج شيخ البحرين أثناء حملة الاتراك على الاحساء، وأرسلت بريطانية السفن الحربية اليها،

---

(١) الريحاني ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ و Wilson ص ٢٤٧ و Curzon ج ٢ ص ٤٥٨

(٢) الريحاني ج ٢ ص ٢٣١. يقول الريحاني ان الشيخ محمد كان ينشر علمين في القلعة، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي وعلماً ايرانياً فوق البرج الشرقي

(٣) Wilson ص ٢٤٧

تهديداً للأتراك بعدم مهاجمتها ، فلم يقتربوا منها[١] . وعقد الانكليز مع الشيخ عام ١٨٩٢ معاهدة تعهد فيها « ان لا يتنازل ولا يبيع ولا يؤجر ولا يأذن باحتلال أي جزء من أملاكه لغير بريطانية » وعينوا عام ١٩٠٠ معاون وكيل سياسي لهم فيها ثم رفعوه سنة ١٩٠٤ الى درجة وكيل سياسي تثبيتاً لنفوذهم[٢] .

السواحل المهادنة : ويبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، وتمتد من العبيد على حدود القطر في الجنوب الى رأس الكلبة في سواحل عمان . وفيها خمسة وسبعون ألفاً من العرب المتحضرين ، يتعيشون على صيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ ؛ وثمانية آلاف من الرحل . ويرجع أصلهم الى قبائل الجواسم والبو علي وبني ياس . وأهم مشايخ هـذه السواحل : البو ظبي والدبي وام الكواين والشرجة[٣] .

كانت هذه السواحل مأوى للقرصان حتى دعيت « سواحل القرصان » ثم عقدت قبائلها المعاهدات مع بريطانية فسميت بالسواحل المهادنة نسبة الى تلك المعاهدات . فان بريطانية لما قررت توطيد نفوذها في الخليج الفارسي ، في أوائل القرن التاسع عشر ، سيرت على قبائل هذه السواحل حملات برية وبحرية فاجبرتها على عقد معاهدات ضمنت للانكليز السيطرة على هذه

---

(١) Handbook ص ٤٨ و ص ٣٠٣ من :
Longrigg, S. H., Four Centuries of Modern Iraq. London 1924

(٢) Handbook ص ٤٣

(٣) Curzon ج ٢ ص ٤٥٠

السواحل[١] . ولما أرادت الدولة العثمانية ان تضم هذه السواحل الى أملاكها بعد مجيء مدحت باشا الى العراق وسوقه حملة الاحساء سنة ١٨٧١ شعرت الحكومة الانكليزية بالحاجة الى معاهدة جديدة ، فعقدت سنة ١٨٩٢ ؛ معاهدة فيها تعهدت قبائل السواحل المهادنة بما يلي :

(أولاً) ان لا تعقد أي اتفاقية مع غير بريطانية وان لا تتصل باي دولة سواها .

(ثانياً) ان لا تأذن لوكيل أي حكومة أجنبية بالاقامة في أراضيها الا بموافقة بريطانية .

(ثالثاً) ان لا تتنازل ولا تبيع ولا تؤجر ولا تأذن باحتلال أي جزء من أراضيها لغير بريطانية .

وقد بلغت الحكومة العثمانية بهذه الاتفاقية في سنة ١٨٩٣ وأعلمت بها حكومتا فارس وفرنسة سنة ١٩٠٣ . وقد جرت المخابرات مع هذه القبائل بواسطة المقيم البريطاني في الخليج منذ تاريخ عقد هذه الاتفاقية[٢] .

القطر : القطر شبه جزيرة بين العقير والعبيد ، يقطنها خمسة وعشرون ألفاً من القبائل المتحضرة وعدد غير مضبوط من الرحل . وقد ارتبطت قبائله ببريطانية بمعاهدتي سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٥ . ووقعت فيه سنة ١٨٦٧ اضطرابات نجمت عن مهاجمة شيوخ البحرين والبوظبي اياه فتدخلت بريطانية في الامر واتخذت من هذه الاضطرابات ذريعة لتقييد شيخه بمعاهدة جديدة

---

(١) Handbook ص ٤٥

(٢) Handbook ص ٤٣

تعهد فيها ان لا يبني سفناً حربية وان يرفع كل ما ينشأ بينه وبين جيرانه من الاختلافات الى المقيم البريطاني في الخليج وان يعترف بسيادة البحرين[١] .

أراد الشيخ الخلاص من قيود هذه المعاهدة فاعلن خضوعه الدولة العثمانية على أثر سوق مدحت باشا حملة الاحساء فعينته هذه قائمقاماً في القطر وأسست في لبدعة (أو الدوحة) — وهي أهم موانئ القطر — مرسى للسفن ومحطة للفحم وأنزلت بها ثلة من الجند ؛ لكن الانكليز رفضوا الاعتراف بهذه الاجراآت فبقيت معلقة الى ان عقدت اتفاقية ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ بين بريطانية والحكومة العثمانية التي تنازلت بها الدولة العثمانية عن جميع ما كان لها من الحقوق في شبه جزيرة القطر .

الاحساء : في أوراق الدولة العثمانية التي ترجع الى عهد السلطان سليمان القانوني ما يدل على ان الاحساء كانت تعتبر جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، غير ان نفوذ الدولة فيها كان ضئيلاً جداً وكانت تمثله الهدايا التي كان يقدمها امراء الاحساء الى ولاة بغداد[٢] . ولكن والي البصرة حسن باشا أرسل في سنة ١٦٦٣ فرقة من بني خالد بقيادة أميرهم براك فاستولت عليها ثم استولى عليها الوهابيون وأعقبهم المصريون على عهد محمدعلي باشا الكبير ثم ضمها مدحت باشا الى العراق . وهاجمها ابن السعود عام ١٩١٣ وطرد حامية الدولة العثمانية منها . فلما عقدت معاهدة سنة ١٩١٣ بين الدولتين العثمانية والبريطانية اعترفت انكلترة بجعل الاحساء جزءاً من ولاية نجد التي عين ابن السعود والياً عليها .

---

(١) Handbook ص ٤٦

(٢) Longrigg ص ٣٨

وكانت هذه السواحل السبب المباشر في تكوين العلاقات بين بريطانية ونجد فقد أخذت قبائلها — بعد ان اعتنقت المذهب الوهابي — تهاجم السفن باسم امارة نجد وكانت حكومة الهند تتجنب الاصطدام بهذه الامارة وتعتبر المعتدين من رجال القبائل الساحلية مسؤولين شخصياً عن أعمالهم الى ان هاجم الوهابيون البحرين عام ١٨٥٩ فتدخلت بريطانية في الامر وتوترت العلاقات بينها وبين نجد وبقيت كذلك الى سنة ١٨٦٦ حيث تعهد الامير « ان لا يمس ولا يعترض أحداً من الرعايا البريطانيين القاطنين في السواحل » . ثم تحسنت العلاقات وتقوّت بين ابن السعود وحكومة الهند لما أخذت بريطانية تمده بالمعونة حتى اذا ما أرادت الدولة العثمانية على عهد مدحت باشا القضاء عليه ونشب الخلاف بينه وبين ابن الرشيد — وكانت الحكومة العثمانية تناصره — أخذت انكلترة جانب ابن السعود .

المحمرة : كانت قبائل كعب قد نزحت الى عربستان في أواسط القرن الثامن عشر واستفادت من انشغال ايران بالمنازعات الداخلية القائمة حول العرش بعد وفاة نادرشاه فاستولت على الفلاحية ، فلما استقرت الاحوال الداخلية في بلاد فارس ووجدت هذه القبائل مقاومة من حكومة البلاد نزحت الى ضفة شط العرب الغربية واستقرت فيها وأخذت قوتها تنمو نمواً سريعاً أقلق الاتراك فناوءوها واستعانوا عليها بشركة الهند الشرقية فعجزت هذه عن اخضاعها وعجزت حكومة الهند عن تأديبها أيضاً . وقد تشجعت قبائل كعب بنجاحها في صد قوى الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية وحكومة الهند فسيطرت على جميع عربستان .

وحدث فى سنة ١٨١٢ ان أذن رئيسها لشيخ قبيلة المحيسن بالاقامة على مصب نهر كاروت فاسس هذا بلدة المحمرة على بقايا مدينة كانت قائمة هناك قبل ستة قرون[١] . وما ان استقرت هذه القبيلة في موطنها الجديد حتى أخذت تنافس قبائل كعب وتسعى للتخلص من سيطرتهم ، فاتصلت بالانكليز — بعد ان أخذت شركة لنج (Lynch) تسير سفنها في نهر كارون — فقوى نفوذها حتى آل الامر اليها[٢] . ولما توسعت مصالح بريطانية في عربستان أسس الانكليز لهم وكالة قنصلية ودائرة بريد في المحمرة في سنة ١٨٩٠ ثم أبدلوا وكالة القنصلية بقنصلية وأسسوا وكالة في الاهواز فى سنة ١٩٠٤[٣] .

وقد كانت حكومة فارس تقاوم شيخ المحمرة فالتجأ الى الانكليز وطلب حمايتهم فرفضوا ولكنهم أجابوه الى طلبه هذا عندما أحسوا من روسية رغبة في بسط نفوذها على عربستان وبعد ان اكتشف النفط فيها وتأسست شركة النفط الانكليزية الفارسية لاستخراجه عام ١٩٠٩[٤] . وبقيت الحالة كذلك الى ان قويت الحركة الوطنية في ايران بعد الحرب العامة فقضت على شيخ المحمرة وعلى النفوذ الاجنبي في عربستان .

الكويت : وهي من موانئ الخليج الحديثة اذ لا يتجاوز تاريخها مائتي سنة ، أسستها قبائل العتوب بعد ان نزحت من جزيرة العرب فى أوائل

---

(١) Longrigg ص ٢٤٨

(٢) Handbook ص ٥٥

(٣) Wilson ص ٢٦٦ وقد غير هذا الوضع فى السنة ١٩٢٧ فجعلت القنصلية فى الاهواز والوكالة فى المحمرة

(٤) Handbook ص ٥٧

القرن الثامن عشر . وتدعى الكويت بالقرن ايضاً نسبة الى شكل الفجوة التي تقوم عليها .

ومن العوامل التي ساعدت على توسع الكويت مهاجمة الفرس البصرة بين سنتي ١٧٧٦ و ١٧٧٩ اذ اضطرت الدوائر التجارية الاجنبية ان تنتقل اليها فاصبحت الميناء الذي تمر منه البضائع في طريقها الى بغداد وحلب وسورية والقسطنطينية . ولما استولى العتوب على البحرين شاركتها الكويت في تجارة البلاد العربية فساعدها ذلك على النمو ايضاً . وعادت اليها الوكالة التجارية الانكليزية من البصرة عام ١٧٩٣ على أثر خلاف وقع بينها وبين السلطات التركية [١] .

وتذكر الحكومة الانكليزية في اوراقها الرسمية ان شيخها طلب الحماية البريطانية في السنة ١٨٠٥ تخلصاً من خطر الوهابيين فلم تجبه الى طلبه . ولم تكن رابطة الكويت بالدولة العثمانية قوية بالرغم من استمرار الشيخ على أداء الخراج لها حتى عام ١٨٢٩ . وقد مر بها الكولونيل بلي في السنة ١٨٦٥ في طريقه الى الرياض لمواجهة امير نجد فادرك اهميتها البحرية والتجارية وكتب بذلك الى حكومته [٢] .

على ان منشأ تاريخها السياسي يبدأ باواخر القرن التاسع عشر عندما دار البحث حول انشاء الخطوط الحديدية التي كان يراد جعل نهايتها على الخليج الفارسي في الكويت . ففي السنة ١٨٩٨ قررت الحكومة البريطانية

---

(١) Wilson ص ٢٥١

(٢) Handbook ص ٥٢

بالنظر الى مساعي روسية وتركية لتوطيد نفوذهما في الكويت ان تتبع سياسة جديدة ترمي الى التدخل في شؤون الامارة وتثبيت علاقتها بها . وحدث ان وقع الخلاف بين افراد اسرة الامارة واستنجد فريق منهم بالدولة العثمانية فالتجأ الفريق الآخر الى المقيم البريطاني في الخليج . فلما أرادت الدولة ان تنزع المشيخة من المغتصب الذي التجأ الى الانكليز ارسلت الحكومة الانكليزية بارجة حربيـــة هددت بها الاتراك فلما تراجعوا عقدت (فى ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٩) معاهدة مع الشيخ مبارك من طراز المعاهدات التي عقدتها مع امارات الخليج الاخرى تعهد بها الشيخ « ان لا يتنازل عن جزء من ممتلكاته وان لا يقبل وكلاء الدول الاجنبية الا بعـــد الحصول على موافقة بريطانية » . واعترفت الدولة العثمانية فى سنة ١٩٠١ بعـــلاقة بريطانية بالكويت وتعهدت ان لا ترسل اليها قوة حربية على ان لا تحتلها انكلترة او تعلن عليها الحماية[١] غير انها انشأت فى سنة ١٩٠٢ مراكز عسكرية فى ام القصر وصفوان وبوبيان ، وكان الشيخ يدعي ان هذه الاماكن داخلة ضمن اراضيه ، فاهتمت انكلترة للامر وجرت بينها وبين الباب العالي مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية سنة ١٩١٣ التي جعلت الامارة بموجبها قضاءاً تابعاً للدولة العثمانية اسماً واعترفت فيها الدولة بالاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا والشيخ[٢]

واسست بريطانيا فى الكويت سنة ١٩١٤ وكالة سياسية واخذت

---

(١) الريحاني ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩

(٢) Handbook ص ٥٤

تتدخل فى انتخاب الشيخ وكان امر لا غنى لها عنه لتوطيد نفوذها .

ولابد لنا قبل ان ينتهي هذا البحث ان نأتي على ذكر الفاو لأنه ،وقع على جانب من الخطورة من وجهتي الدفاع والمخابرات ؛ فهو باب العراق الحربي اذ يقع فى نهاية شط العرب ؛ وهو ملتقى الاسلاك البرية التي تصل الهند باوربا .

كان مدحت باشا اول من اهتم بالفاو فجعل منه عام ١٨٦٩ مركز قضاء يمتد بين خور الزبير وشط العرب . وأرادت الحكومة العثمانية ان تقيم فيه الاستحكامات الحربية قبيل الحرب العامة — خلافاً لنصوص معاهدة ارضروم الثانية — ولكن معارضة الانكليز والحكومة الفارسية حالت دون ذلك [1] . وكان قضاء الفاو اول بقعة احتلتها القوات البريطانية من اراضي العراق عند نشوب الحرب بينها وبين الدولة العثمانية فى الحرب العامة .

وقد حدثت مؤخراً بعض التبدلات فى وضع الخليج سنأتي على ذكرها فى الفصول الاخرى .

---

(١) Handbook ص ٦٤ و Longrigg ص ١٢٦

الفصل الثاني

المصالح التجارية تتقدم المطامع السياسية

يبدأ تاريخ الاستعمار الاوربي باكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٤٥ ، ووصول فاسكو داجاما الى كاليكوت عام ١٤٩٨ ، وكولومبس الى سواحل اميركا عام ١٤٩٢ . وينقسم الى دورين : الدور التجاري وينتهي بالثورة الفرنسية ؛ والدور الصناعي الرأسمالي او الاستعمار الحديث ويبدا بالثورة الصناعية .

وقد مر تاريخ السياسة الانكليزية في الشرق في دورين مطابقين لدوري الاستعمار ، يبدأ الاول منهما باتصال الانكليز بايران عن الطريق التجاري الشمالي ، ويبدأ الثاني بالثورة الفرنسية وحروب نابليون . وسنتناول في هذا الفصل البحث في الدور الاول وهو الذي انحصرت فيه مصالح انكلترة في التجارة فلم تسع خلاله لاستعمار ايران او العراق او ما يجاورهما .

يعتبر وصول فاسكو داجاما الى الهند في مايس سنة ١٤٩٨ اول بوادر الانقلاب العالمي الحديث الذي أوجد الرأسمالية الاوربية الحديثة ومهد لها سبل السيادة على العالم . وكان من نتائجه ان اندرست طرق التجارة البرية بين الصين والهند والبحر الابيض المتوسط ، وهي يومئذ قوام الحياة الاقتصادية في الشرق الادنى والاوسط والسر فيما كان لهذه البلاد من المقام العالمي وما قام فيها من الحضارات ؛ وخسرت المدن الايطالية مثل جنوه والبندقية وبيزا وفلورنسه مكانتها التجارية ، وكانت القابضة على تجارة البحر الابيض

وواسطة الصلة بين الشرق والغرب ومركز الحياة الاوربية ، سواء الاجتماعية منها او السياسية .

كانت التجارة بين اوربا وآسيا قد توقفت بعد اكتساح البرابرة روما الغربية واستيلاء المسلمين على الشرق الادنى ، فلم يطرق السبل التجارية فى هذه الفترة غير افراد من اليهود والسوريين فلما جاء القرن العاشر اخذت بعض المدن فى جنوب ايطاليا مثل برنديزي وباري وتارنتو ترسل السفن التجارية الى سواحل سورية ومصر ، وحذت حذوها مدن ايطاليا الاخرى مثل البندقية وجنوه وبيزا . ولما وقعت الحروب الصليبية تولت البندقية وجنوه وبيزا ، بالنظر لموقعها الجغرافى ، نقل الصليبيين وتموينهم فعاد عليها ذلك بالارباح الطائلة ومهد لها سبيل النمو والتوسع .

وكان من أهم ما يستورد من الشرق : التوابل من سيلان وصومطره والهند ، والاحجار الكريمة من ايران والهند وسيلان ، والكافور من صومطره وبورنيو ، والمسك من الصين ، والسكر والنيل وخشب الصندل والعود من الهند ، والشب من آسيا الصغرى ؛ وكان الشرق يصدر الى اوربا كذلك الزجاج والخزف والحرير والاطلس والسجاد والنسيج الموشى ، وهي يومئذ مواد رائجة فى المجتمع الاوربي الاقطاعي . وكان تجار المدن الايطالية يستبدلونها فى الموانئ السورية مثل حيفا وانطاكيا وفى القاهرة والاسكندرية ، بالمنسوجات الصوفية الخشنة والزرنيخ والكحل والزئبق والصفيح الابيض والنحاس الاحمر والرصاص والمرجان . على ان هذه الصادرات لم تكن تسدد ثمن المواد المستوردة فكانت اوربا تدفع الباقي بالذهب حتى كاد

أن ينضب .

وكانت تجارة الشرق تنقل فى ثلاثة طرق : الطريق الاوسط ؛ تنقل فيه البضائع بحراً الى هرمز ومنها الى شط العرب فبغداد ، فتحملها القوافل من بغداد الى حلب وانطاكيا والشام ، واحياناً الى القاهرة والاسكندرية . والطريق الجنوبي على البحر الاحمر ، تحمل فيه البضائع على السفن العربية من الهند والشرق الاقصى الى سواحل البحر الاحمر ومنها تنقلها القوافل الى القاهرة والاسكندرية ، وكانت السفن تستفيد من الرياح الموسمية فتقطع المسافة بين الهند ومصر فى أقل من ثلاثة أشهر . والطريق الشمالي ، ويتألف من مسالك متشعبة من الهند والصين تلتقي فى سمرقند وبخارى ثم تفترق مرة اخرى فيمتد بعضها نحو بحر الخزر ويقطع روسية الى سواحل البلطيق ، ويمتد البعض الآخر فى استراخان الى ضفاف نهر الفولجا او يسير شرقاً نحو تبريز فارمينيا الى سواحل البحر الاسود ، وكانت أغلب القوافل التي تقطع هذه الطرق بين الشرق الاقصى وسواحل البحر الاسود بيد العرب .

كانت هذه التجارة تعود بالارباح الطائلة على المدن الايطالية وبعض المدن الجرمنية مثل نورمبرك واوسبرك واولم وريكسبرك وكونستانس ، اذ كان تجارها يشترون البضائع من المدن الايطالية ويبيعونها فى المانيا وانكلترة واسكندناويه . فكان لذلك أثر عظيم فى تحسن احوال المدن الايطالية والمدن الجرمنية وظهور بوادر النهضة الاوربية فيها . وكانت اوربا الغربية محرومة من خيرات هذه التجارة ، فساقها ذلك الى العمل على اكتشاف طرق جديدة توصلها الى الهند والشرق الاقصى . وكان البرتغال والاسبان

في مقدمة العاملين في هذه السبيل .

فلما اكتشف فاسكو داجاما الطريق الموصل الى الهند وعاد الى لشبونه عام ١٤٩٩ يحمل من البضائع ما يعادل ستة اضعاف نفقات بعثته اسرع البرتغال للسيطرة على هذا الطريق ، فتعقب كبرال أثر فاسكو داجام عام ١٥٠٠ ، واعقبه البوكرك عام ١٥٠٣ ، وصارت سفن البرتغال تحمل من الهند وهرمز وسيلان وملاقا وجافا ونانكنك اكداس البضائع ، لاسيما بعد ان استولى العثمانيون على مصر عام ١٥١٧ .

وكانت تجارة الشرق يومئذ بيد العرب من عمان واليمن فنازلتهم البرتغال وسلبتها منهم ، وكان لها من تفرق كلمتهم اكبر معين في التغلب عليهم على ان سيادة البرتغال على تجارة الشرق لم تدم طويلاً ؛ فقد عجزت عن ادارة املاكها الشاسعة ، وكانت تدعي السيادة على افريقيا وجنوب آسيا والبرازيل ؛ ولم تسلك في المتاجرة سلوكاً يحببها الى اهل هذه البلاد انما اعتمدت في صلتها بهم على القوة فلما فقدت هذه القوة بانضمامها تحت لواء فليب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٨٠ ، وكان مشغولاً في حرب مع الفرنسيين والانكليز والهولنديين ، خسرت مركزها وتراجعت امام منافسة الهولنديين والانكليز والفرنسيين .

* * *

لم يكن للانكليز في اول حركة الاكتشاف شأن يذكر لضعف قوتهم البحرية وعجزهم عن منافسة البرتغال والاسبان ، ولم ينزلوا الى عرض البحار الا في اواخر القرن السادس عشر اذ ارسلوا البعثات لاكتشاف اقاصي

العالم الجديد وسعوا للوصول الى متاجر الشرق عن طريق البحر الابيض الشمالي وطريق الفرات ، تجنباً من الاصطدام بالبرتغال ورغبة في المتاجرة مع اسواق الشرق الاوسط . فالفوا سنة ١٥٥٣ شركة من التجار والمغامرين لكشف الطريق الشمالي ، وتوجه السر هوك ولوبى الى البحار الشمالية للاكتشاف فاهلكته الثلوج على سواحل لابلند . على ان احدى سفنهم استطاعت ان تصل الى سواحل البحر الابيض الشمالي الداخلية وتوغل قائدها في روسية حتى وصل بلاط ايفان الرهيب فاتفق معه على تأسيس شركة انكليزية روسية للمتاجرة براً بين روسية والاراضي الواقعة شرق وجنوب بحر قزوين . وقد استحصلت هذه الشركة اجازة للمتاجرة مع الشرق في عهد ماري تيودور واوفدت بعثة لاكتشاف الطرق الى اواسط آسية فاجتازت البعثة سواحل بحر قزوين حتى دخلت تركستان ووصلت الى بخارى ، وكان افرادها اول الانكليز الذين وطأت اقدامهم تلك الارض[1] . واتصلت الشركة بفارس على عهد الملكة اليزابث التي ارسلت الهدايا الى الشاه ، وكان متردداً في قبول صداقة انكلترة حتى انه رد بعض كتب الملكة ، ولكن الانكليز واصلوا السعي للتقرب اليه وبيان فوائد تأسيس العلاقات التجارية معهم واستفادوا من عدائه للاتراك فحرضوه على محاربتهم ووعدوه بالمساعدة وبذلك تمكنوا من تأسس العلاقات التجارية مع ايران .

وكان الانكليز قد وجهوا انظارهم في اواخر القرن السادس عشر الى طريق الفرات للتوصل الى مغانم المتاجرة مع الهند فالفوا الشركة التركية التي

---

(١) Curzon ص ٥٣٦

ارسلت بعثة لدرس هذا الطريق ، صرت عام ١٥٨٣ بطرابلس الشام و بغداد والبصرة وهرمز ووصلت بلاوه ، ولكن اعضائها هلكوا في هذه الرحلة الشاقة ولم يعد منهم غير واحد وصل انكلترة عام ١٥٩٠ يحمل كل ما تمكن من جمعه من المعلومات . والظنون ان رجال هذه البعثة كانوا اول من دخل ارض الرافدين من الانكليز[١] .

ثم حدث بعد ذلك ما جعل الانكليز يتركون هذه الطرق المخوفة بالمخاطر الى طريق رأس الرجاء الصالح بعدما انتصروا في واقعة الارمادا على فيليب الثاني ملك اسبانيا والبرتغال سنة ١٥٨٨ . فالفوا في ٣١ كانون الاول من سنة ١٦٠٠ شركة الهند الشرقية التي اتخذت سورات ، احدى موانئ الهند ، مقراً لها ارسلت منه السفن الى سواحل الخليج — لاول مرة — عام ١٦١٢ . وقد استحصلت هذه الشركة « فرماناً » من الشاه عباس الاول سنة ١٦١٥ امر به جميع موظفي الموانئ الفارسية بمساعدة التجار الانكليز[٢] . واوفدت سنة ١٦١٧ وفداً قابل الشاه واستحصل منه امراً يجيز للشركة احتكار تجارة الحرير ، وكانت تريد بذلك القضاء على التجارة البرتغالية في بلاد ايران اذ كان الحرير أهم ما تتاجر به المملكتين مع البلاد الفارسية[٣] .

على ان ذلك لم يكفل لانكلترة الاستيلاء على تجارة البلاد وكان لابد من ان تصطدم بالبرتغاليين ، وكانوا يرقبون حركاتها و يسعون للايقاع

---

(١) Miles ص ٢٠٥ Curzon ج ٢ ص ٤١٦ — ٤١٧

(٢) Longrigg ص ١٠١ Curzon ج ٢ ص ٥٤٦ Miles ص ٢٠٨

(٣) Wilson ص ١٣٩

بها ، وكانت الشركات الهولندية والفرنسية التي تألفت اسوة بالشركات الانكليزية تزاحم تجارتها وتضع العراقيل في سبيلها .

وقد وقعت اول معركة بين الانكليز والبرتغاليين في الخليج بالقرب من جسك ، وكان النصر حليف الاول فاسسوا في جسك على أثر هـذا الانتصار أول مركز لتجارتهم في الخليج (١) . وكانت سياستهم على نقيض سياسة البرتغاليين ؛ فقد كانوا يحسنون معاملة الاهلين و يتقربون الى الامراء فاستمالوا أهل البلاد . وقويت علاقتهم بالشاه حتى طلب معونتهم لطرد البرتغاليين من الموانئ الفارسية ، وكان ذلك في صالحهم فساعدوه ؛ فلما ابعد البرتغاليون حلوا محلهم فيها . وعقد الشاه معهم سنة ١٦٢٢ اتفاقاً عهـد فيه اليهم بامر حماية التجارة في الخليج فوضعوا بارجتين من بوارجهم في مياهه وكان ذلك اول حجر في بناء مركزهم السياسي وامتداد النفوذ البريطاني في الخليج (٢) .

على انهم جوبهوا بمنافسة الهولنديين عقيب تخلصهم من البرتغاليين ، وكان الهولنديون قد توسعت تجارتهم بعد ان نالوا استقلالهم من الاسبان و بعد ان شجعهم انكسار فيليب الثاني في واقعة الارمادة على الوصول الى الهند ، فالفوا جملة من الشركات التجارية توحدت سنة ١٦٠٢ فتألفت منها شركة الهند الشرقية الهولندية التي استطاعت في مدى عشرين سنة من

---

(١) ج ٢ ص ٧٠٠ من : Chesney, The Expedition For The Survey of The Rivers Euphrates and Tigris ج ٢ ص ٥٤٨ Curzon, ص ١٠٢ Miles, ص ٢٠٩ Longrigg.

(٢) Moperly ج ٢ ص ٤٥ Coke ص ٩

الاستحواذ على اكثر مراكز التجارة البرتغالية في الشرق .

دخل الهولنديون الخليج ، والنزع قائم بين الانكليز والبرتغاليين ، فاعانوا الاول واسسوا لهم مراكز تجارية في بندر عباس واصفهان والبصرة ، وكان طبيعياً ان ينفر الانكليز منهم لمنافستهم القوية ولتوسلهم بمختلف الوسائل لعرقلة سير التجارة الانكليزية والقبض على الاسواق ، لاسيما بعد ان شددوا على الشاه ، وهو مشغول بالدفاع عن بغـــداد وقد حاصرها الاتراك ، فاجبروه على منحهم جزء من تجارة الحرير وكان الانكليز قد احتكروها . ثم امتنعوا عن دفع الرسوم على بضائعهم في بندرعباس فتضررت بذلك الشركة الانكليزية وكانت تتمتع وحدها بهذا الامتياز . وتوفي الشاه عباس الاول سنة ١٦٢٩ ففقدت انكلترة بموته عضداً قوياً . وكانت العادة الجارية في البلاد الفارسية ان تتجدد العقود كلما تولى الامر شاه جديد فاغتنم الهولنديون هذه الفرصة للقضاء على التجارة الانكليزية فرشوا رجال الحكومة الفارسية ودفعوا أثماناً عالية للبضائع الفارسية وضايقوا الانكليز حتى اجبروهم على نقل بضائعهم الى البصرة سنة ١٦٣٩ . وشجعهم هذا الانتصار فراحوا يعملون بقوة لاحتكار اسواق فارس ، وركنوا الى استعمال العنف لاستحصال الامتيازات من الحكومة وكانوا يستحصلونها قبلاً بالرشوة وتقديم الهدايا ، فارسلوا في خريف سنة ١٦٤٥ قوة عسكرية انضمت الى اسطولهم في الخليج واحتلت جزيرة قشم فاضطر الشاه ان يمنحهم ما أرادوا (١) .

وتعقب الهولنديون الانكليز الى البصرة فارسلوا ثمانية من سفنهم أنزلت

---

(١) Longrigg ص ١٠٧ Wilson ص ١٦٠ — ١٦١

بضائعها في المناوي وملأت بها الاسواق ، وكانت على وشك ان تقضي على التجارة الانكليزية فيها . وقد اشتدت هذه المنافسة حتى كانت من جملة العوامل في نشوب الحرب بين الدولتين بين سنتي ١٦٥٢ و ١٦٦٧ ، ولم تنته الا عندما اضطر الانكليز والهولنديون ان يتحدوا لمقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسة الذي عظم شأنه وحارب الهولنديين والاسبان وخرب أساطيلهم . وكان ما حدث للهولنديين على يد لويس الرابع عشر ضربة قاضية على تجارتهم في الشرق ففقدوا مركزهم الذي بنوه بالقوة بعد ان فقدوا تلك القوة ؛ وتضاءل نفوذهم في الخليج فانسحبوا من البصرة عام ١٧٥٣ ومن بوشهر بعد ذلك بقليل وأغلقوا باب وكالتهم في بندر عباس سنة ١٧٥٩ ، فصفى الجو للانكليز .

اما فرنسة فقد بدأت منافستها للتجارة الانكليزية عام ١٦٢٦ لما ارسل ريشليو — وزيرها — ممثلاً من قبله الى البلاط الفارسي ليحول دون اتحاد الشاه مع اسبانية على الاتراك . ثم ارسل كولبرت — على عهد وزارته — وفداً الى الشاه عباس الثاني استحصل منه « فرماناً » أعفى البضائع الفرنسية من الضرائب والمكوس لمدة ثلاث سنوات وجعل لفرنسا من الحقوق والامتيازات ما لبقية الدول الاجنبية . وأسس الفرنسيون على أثر ذلك مركزين تجاريين في اصفهان وبندر عباس ، ولكنهم لم يديروا الامر ما هو جدير به من الاهتمام فلم تتقدم تجارتهم ، فتركوا مركزهم في اصفهان سنة ١٧١٢ أثناء الفتح الافغاني . وفي خلال حرب السنين السبع وصلت الخليج أربع من سفنهم مخفية حقيقتها بالعلم الهولندي فهاجمت مركز التجارة الانكليزية في

بندر عباس ودمرته . وأسسوا لهم سنة ١٧٥٥ وكالة تجارية في البصرة ثم قلبوها الى قنصلية عام ١٧٦٥ . على ان المنافسة الحقيقية بين الدولتين لم تبدأ الا على عهد الثورة الفرنسية وحروب نابليون .

وقد اتصل الانكليز بالعراق لاول مرة بمجيئهم الى البصرة بين سنتي ١٦٣٥ و ١٦٣٩ ، اذ اغتنموا فرصة ابتعاد البرتغاليين عنها ووجدوا من التشجيع ما ساعدهم على اقامة مركز تجاري لهم فيها في سنة ١٦٤٣ ، ثم نقل مركز بندر عباس تجارته اليها في سنة ١٦٤٥ ؛ لكن الهولنديين أنزلوا في هذه السنة عينها كمية كبيرة من البضائع واشتدت منافستهم للتجارة الانكليزية فاصيبت من جراء ذلك باضرار عظيمة ، وأوغروا عليهم صدر الباشا — والي البصرة — فامر بسد مخزنهم . على ان ذلك لم يمنع الانكليز عن مواصلة ارسال سفنهم الى البصرة بين حين وآخر .

ولما زار الوالي علي باشا البصرة سنة ١٧٦٣ ورأى قبائل كعب تعبث في ضواحيها وعد وكيل الشركة الانكليزية فيها بتمشية مصالحه اذا ساعدته سفن الشركة في اخضاع هذه القبائل ؛ فارسل الوكيل جملة من السفن هاجمت العرب فانتصروا عليها وأسروا ثلاثة منها . فلما علمت بذلك حكومة بومبي أرسلت سنة ١٧٦٦ اسطولاً من ست سفن لتأديب قبائل كعب ؛ وجاء محمود اغا — كهية عمر باشا — من بغداد ليضم قواه الى قوة الشركة ، الا ان العرب انتصروا هذه المرة ايضاً فاحرقوا سفينتين من سفن الانكليز وتسعاً من سفن الاتراك وصدوا القوة التي هاجمتهم من البر .

وكان هذا الاشتراك في مقاومة القبائل العربية سبباً في تحسن العلاقات

بين الشركة والولاة ؛ فتوسعت مصالحها التجارية في العراق حتى اضطرت ان تعين لها وكيلاً فيها . (وعينت الوكيل رجلاً ارمنياً استبدلته — بعد ذلك — بانكليزي) . وكانت تجلب الى العراق المواد المعدنية والمنسوجات الصوفية فتبيعها او تستبدلها بالحرير الفارسي وقد وجدت لها عوناً كبيراً لتسيير مصالحها في شخص سليمان باشا الكبير بعد ان ساعده وكيلها في الحصول على منصب ولاية الثلاث أيالات ، وكان يقرضه ما يحتاج اليه من المال و يتولى امر تحويل المبالغ التي يرسلها الى استانبول . وكانت الشركة تستورد للباشا ما يحتاج اليه من الاسلحة والمعدات الحربية وتستقدم له المدربين العسكريين . وقد اصبح لها من النفوذ في أواخر القرن الثامن عشر ما ساعدها على ان تحمل بريدها على القوافل الى سواحل البحر الابيض المتوسط .

اما علاقة الانكليز بسكان سواحل الخليج العربية فقد بدأت بنزوح البرتغاليين عن هذه السواحل . وقد كانت الشركة تتجنب على ما يظهر الاشتباك معهم ، فكان ذلك سبباً في رفضها اجابة الشاه الى طلبه عندما طلب اليها ان تساعده في مهاجمة عمان . على ان قبائل هذه السواحل قويت شوكتهم بعد تخلصهم من البرتغال فعرقلوا سير مصالح الفرس والانكليز والهولنديين جميعاً اذ كانوا يهاجمون السفن التجارية حتى وقعت بيدهم عدة من سفن الشركة الانكليزية . غير ان هذه الشركة لم تتخذ أي اجراء ضد هذه القبائل بالرغم من وصول « التقارير » الى مديرها تعلمه بتهديدهم مصالحها

ووصول الاخبار من حاكم مدراس بمهاجمتهم سواحل ولايته . وقد استمرت الحال على هذا المنوال الى ان جاء نادر شاه فاهتم بامر هذه السواحل وأخضع مسقط والبحرين . وظهر احمد بن سعيد بعد زمن فخلص مسقط من قبضة الفرس وتولى حكمها . وخلفه ابنه السيد سلطان فوضعت في عهده علاقات بريطانية على أساس سياستها الجديدة كما سيرى القارئ في الفصل التالي .

obeikandl.com

الفصل الثالث

بريطانيا تسيطر على الخليج في سبيل الهند

كانت سيادة اسبانيا والبرتغال على البحار قصيرة الامد فقد فقدت البرتغال قوتها البحرية بعد انضمامها الى اسبانية على عهد فيليب الثاني الذي أشغلته الحروب مع الانكليز والفرنسيين والهولنديين المطالبين باستقلالهم عن العناية بشؤون التجارة . ولما أعلنت هولندة انفصالها عن اسبانية سنة ١٥٦٦ ، وكانت مرغمة بطبيعة وضعها الاقتصادي والجغرافي ان تعتمد في حياتها على البحر فنشأت قوية فيه ، استطاعت في مدة وجيزة ان تنازل سفن الاسبان والبرتغال فتستولي عليها ، وان تضبط أكثر مراكزهم التجارية في الشرق وفي اميركا ، فكانت سيدة البحر مدة القرن السابع عشر .

على ان انكلترة نزلت الى الميدان على أثر انتصارها في واقعة الارمادا فكان نزاع عنيف بين الهولنديين والانكليز وبقيت نيران الحروب تستعر بين الدولتين الى ان أعلن لويس الرابع عشر الحرب على هولندة عام ١٦٧٢ فانقلبت الحرب بين انكلترة وهولندة الى اتفاق على مقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسة العتيد . غير ان نجم هولندة أخذ في الافول بعد هذه الحروب فتركت الميدان الى فرنسة والانكليز . وقد دام النزاع بين انكلترة وفرنسة مدة مائة عام وانتهى بفوز الانكليز الذين خرجوا منه وبقبضتهم سيادة البحار ، والهند والقسم الاعظم من أراضي العالم الجديد .

وقد اعتاد الانكليز ان يصفوا الهند بالدرة اللامعة في التاج البريطاني

و يظهروا للشعب الانكليزي انها قوام حياته وسر عظمة بريطانية ، حتى أصبحت الهند مدار السياسة البريطانية وشغلها الشاغل .

وفي الواقع ان الهند كانت قوام الرأسمالية الانكليزية في مختلف أدوار نشوئها وهي العامل الاكبر في تفوقها وسطوتها ، ولا تزال السر في قوتها وجبروتها . فبنهب كنوز الهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع التجار الانكليز ان يجمعوا أكداس الذهب والفضة وغيرها من المواد فيقيموا بواسطتها الرأسمالية الصناعية التي نشأت في بريطانية واتخذت من الهند سوقاً تعيش عليه ومورداً لما تحتاج اليه من المواد الخام . والهند في الوقت الحاضر ميدان لاستثمار رؤوس الاموال الانكليزية واستغلال العمال الى أبعد حد عرفته البشرية ، وسوق من أعظم أسواق العالم ، ومورد تستنزف منه الرأسمالية الانكليزية المال والمواد الخام[1] .

وعدا عن ان ٢٧١ مليون من سكان الهند ومليوناً من الاميال المربعة من مساحتها تخضع للحكم البريطاني المباشر فان الامارات التي يحكمها الامراء لا تمتاز عن الولايات الخاضعة للحكم المباشر بسوى المظاهر ؛ فالسادة الامراء ليسوا سوى عبيد للادارة البريطانية ، يعرفون حق المعرفة انهم مدينون لها بمركزهم و بما ينعمون به مما يبتزونه من الشعب الهندي من الاموال والرأسمالية الانكليزية حريصة كل الحرص على الاحتفاظ بهذه الحشاشة من بقايا العصور الاقطاعية كسلاح من أسلحة الرجعية ، تقاوم به الطبقة الوسطى الناشئة والسواد الاعظم من الشعب الهندي . وتؤلف مساحة الامارات ٣٩ في المائة من مجموع

---

(١) British Imperialism in India, By Joan Beauchamp

مساحة الهند و ٢٣ في المائة من عدد سكانها (٨١ مليون نسمة) .

وقد توسل الانكليز منذ ان تأسست شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠ بكل الوسائل لابتزاز الثروة من هذه المملكة الغنية التي تعادل في المساحة نصف قارة أوروبا ، وشجعهم على ذلك انحطاط مستوى العيش فيها والجهل المطبق على سكانها ، حتى بلغت أرباح هذه الشركة ٢٥٠ في المائة في السنة ، عدا عن ما كان ينهبه موظفوها بمختلف الطرق والاساليب وما ينالونه من الهدايا من امراء الهند لقاء بعض المساعدات التي كانوا يسدونها لهم . فقد نال كليف المستعمر المعروف وحده سنة ١٧٥٧ مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية وأرضاً وارداتها السنوية ٣٠،٠٠٠ ليرة انكليزية جزاء مساعدته أحد المتنازعين على امارة البنغال وبلغ مجموع قيمة الهدايا المقدمة للشركة بين سنتي ١٧٥٧ و ١٧٦٦ ستة ملايين ليرة انكليزية . وكان الانكليز بين سنتي ١٧٦٩ و ١٧٧٠ يجمعون كل ما في المملكة من الرز و يبيعونه للسكان باسعار باهظة فادى ذلك الى حدوث مجاعات هلك فيها الملايين من السكان ، و بالغوا في ارهاق المزارعين في البنغال حتى بلغت واردات الشركة من الزراعة وحدها (١٣،٦) مليون ليرة انكليزية سنة ١٨٢٢ — ١٨٢٣ ، و (١٥،٧) سنة ١٨٥٧ — ١٨٥٨ . وكان مجموع ما يستحصل من البنغال في عهد الحكم المغولي قبيل مجيء الانكليز لا يتجاوز المليون ليرة انكليزية . وقد ذهبت الشركة في استنزاف المال بواسطة المتاجرة الى أبعد حد ، حتى ان مجموع قيمة ما استورد الى الهند بلغ بين سنتي ١٧٦٦ — ١٧٦٨ (٦٢٤،٣٧٥) ليرة انكليزية بينما بلغ مجموع ما صدر منها الى انكلترة ٥،٣١١،٢٥٠ ليرة

انكليزية ، عدا عن المبالغ الطائلة التي كان يجمعها المحاربون وموظفوا الشركة ويحملونها معهم الى بريطانية عند عودتهم اليها . وقد فعلت الشركة في بهار واوديسا وميسور وتنجور وراجبوتانا وبرما السفلى والبنجاب والسند وغيرها من المقاطعات التي ضمتها لأملاكها مثل ما فعلت في البنغال بين سنتي (١٨١٤ – ١٨٥٦) .

وقد قال ما كولي ، الكاتب الانكليزي المشهور ، في كتابه عن اللورد كليف يصف استنزاف الاموال من الهند على عهد الشركة المذكورة : « لقد أكرهوا (عمال الشركة) الاهلين على الشراء باثمان باهظة والبيع بسعر زهيد . وشملوا بحمايتهم بعض الاهلين من صنائعهم فطافوا البلاد يعيثون فيها فساداً ويقذفون الرعب في نفوس الناس أينما حلوا . وكان خادم كل أجير بريطاني مؤيداً بكل ما لسيده من سلطان ، وكان سيده مسنوداً بكل ما للشركة من جبروت . هكذا جمعوا الاموال الطائلة في كلكته باسرع وقت وأنزلوا ثلاثين مليون نسمة (من سكان البلاد) الى حضيض الهلاك . ومع ان الاهلين كانوا قد اعتادوا العيش في ظل الطغاة الا انهم ما سبق لهم قط ان شهدوا مثل هذا العسف » .

كانت هذه الاموال الطائلة المبتزة من الشعب الهندي غذاءً للرأسمالية الصناعية التي نشأت في انكلترة في القرن الثامن عشر . حتى اشتد ساعدها بعد منتصف هذا القرن فاخذت تنافس شركة الهند الشرقية فحملت البرلمان الانكليزي على تشريع القوانين التي جعلت أسهم الشركة تحت اشرافه وأرغمتها على دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة ، وعلى تصدير

المصنوعات التي تنتجها المعامل الانكليزية الى الهند ؛ وقد عين البرلمان لجنة للاشراف على ادارة أملاكها ، وقرر فتح أبواب الهنـــد لجميع الرأسماليين من الانكليز . وبذلك دخلت الرأسمالية الانكليزية في دورها الثاني اذ أصبحت الهنـــد مصدراً للمواد الخام وسوقاً للبضائع الانكليزية . وكان من أول مظاهر هذا الدور القضاء على الصناعات الوطنية في الهند لاسيما صناعة النسيج ، لينفسح المجال للمنسوجات والبضائع الانكليزية ان تنتشر الى أقصى الحدود . و بعد ان قضى الانكليز على صناعة النسيج الوطنية توسع نطاق انتشار منسوجاتهم في الهنـــد فبلغ مقدار الغزل المصدر اليها ٥،٢٠٠ ضعف بين سنتي ١٨١٨ و ١٨٣٦ وزاد مقدار الشاش من مليون يارد في ســنة ١٨٣٧ الى ٦٤ مليون يارد في سنة ١٨٣٧[١].

على ان قابلية الهنـــد لشراء المنسوجات البريطانية أخذت تتضاءل لنضوب معين الثروة فيها فاضطر الرأسماليون الى التحري عن علاج ينعش هذا الجسم الذي عاشوا على امتصاص دمه . وكان مجال استثمار رؤوس الاموال في انكلترة قد ضاق وأخذت نسبة الارباح بالنزول ، فعمدوا الى استثمارها في مشاريع زراعة القطن وغيرها . وكانت صناعة الحديد في انكلترة قد نمت وأصبحت بحاجة الى سوق لتصريف منتوجاتها فرأى أصحابها في مد السكك الحديدية وانشاء مشاريع الري وتأسيس مراكز البرق والبريد خير

---

(١) Beauchamp ص ٢٩ ("The British Rule in India." By Marx.)

منفذ لها ، لاسيما وقد أضحت الرأسمالية الانكليزية بحاجة ماسة الى ضمان طرق المواصلات والمخابرات لتسهيل استثمار البلاد وتثبيت وضمان السيطرة فيها . فدخلت الرأسمالية بذلك دورها الثالث ، دور استثمار رؤوس الاموال واستغلال الشعب فى ميادين العمل ، علاوة على استنزاف ينابيع الثروة فى البلاد .

وكان من أهم مظاهر هذا الدور سوق الرأسماليين الحكومة البريطانية الى تبديل الوضع السياسي فى البلاد والقبض على زمام الحكم فيها مباشرة[١] . وقد صحب هذا الدور أيضاً ازدياد الارهاق واشتداد البطش والعسف . فقد حدث فى مستهله ان تمردت بعض كتائب الجيش الهندي واندلعت نيران الثورة فى البلاد فبطش الانكليز بالهنود بطشاً لم يشهد التاريخ له مثيلاً وكانت حركة العمال وطلبهم تحديد ساعات العمل قد نشطت فى انكلترة فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر فرأى الرأسماليون فى العامل والفلاح الهندي خير وسيلة لاستنزاف أعظم مقدار من الربح لرؤوس أموالهم اذ كان باستطاعتهم ان يشغلوا الرجال والنساء والاولاد فى الهند دون قيد أو شرط باجور أدنى مما كانوا يتصورون . لقد ارتكب الرأسماليون فى ارهاق الفلاح والعامل الهندي من المظالم ما يفوق حد التصور وما كان عليهم من رقيب . فكانوا يسترجعون قسماً كبيراً من الاجور الزهيدة التي لم تكن تكفي لسد رمق الفلاح والعامل كغرامات وكانوا يفرضونها لأقل زلة . وبالرغم من انهم

---

(١) Dutt, R. Palme : Modern India

كانوا يدفعون اجور العمال مشاهرة فقد اعتادوا تأجيل دفعها الى انقضاء القسم الاعظم من الشهر الآخر فيثقلون بذلك كاهل العامل والزارع بالديون ، وقد دلت التحريات على ان الفلاح كان يستقرض من مستخدميه بفائض قدره ٢٢٥ في المائة في أحمد آباد و ١٥٠ في المائة في الولايات الوسطى و ٣٢٥ في المائة في البنغال ، وكان فائض هذه الديون كثيراً ما يتراكم فيجعل من العامل أو الفلاح عبداً لا سبيل له الى الخلاص[١] وقد تبين من درس أحوال العمال والفلاحين ان وكلاء الاستخدام في أحمد آباد وفي غيرها كانوا يتبعون طريقة العقود في الاستخدام فيستأجرون الولد من أبيه لمدة سنتين أو أكثر باجرة لا تزيد على خمس وأربعين شلناً في السنة . وكان العمال من رجال ونساء وأولاد يعملون من الساعة السابعة ونصف صباحاً الى الساعة السابعة مساءً دون توقف . هذا في المعامل القريبة من رقابة الحكومة فاهيك في غيرها ، حتى ان بعض النساء كن يلدن في المعامل أثناء العمل . وكانت النساء العاملات في مقاطعة بومبي ترغمن على ترك أطفالهن خارج المعامل فكن ينومنهم بالافيون ، وقد أظهرت التحقيقات سنة ١٩٢٢ ان ٩٨ في المائة من أطفال العاملات في بومبي كانوا يجرّعون الافيون لهذا الغرض[٢]. وكانت ساعات العمل تتراوح في أحسن الحالات بين العشر والاربع عشرة ساعة طول مدة الاسبوع بلا توقف . ومع ان الاجور في الهند تختلف باختلاف الجهات ونوع العمل ، فهي من أوطأ الاجور في العالم بحيث تصل

---

(١) Beauchamp ص ١٠٤

(٢) Beauchamp ص ١٠٧

الى العشرة فلوس في اليوم . وقد وجد ان الاولاد في كثير من المشاريع الزراعية يستخدمون منذ السنة الرابعة من سنهم[١] . كان الرأسمالي الانكليزي في الهند يستطيع ان يرتكب كل هذه الفضائع على مشهد من المدنية الاوربية فتسنى له بذلك ان يستنزف ربحاً بلغ ٣٠٠ في المائة من قيمة الاسهم[٢].

على ان ابتزاز الرأسماليين من الانكليز أموال الهند لم ينته عند هـذا الحد ، فقد كانت الرأسمالية الانكليزية تمد السكك الحديدية لتسهيل الاستغلال وأحكام الاستعباد على حساب الشعب الهندي الذي لم يتح له السفر فيها الا في أدنى الدرجات وكان القسم الاعظم من المبالغ المخصصة لمد السكك وغير ذلك من المشاريع يختلس في أغلب الاحيان حتى تبلغ نفقات هذه المشاريع أضعاف التخمينات ، من ذلك ان الميل الواحد من الخطوط الحديدية كلف ١٨١٠٠٠ ليرة انكليزية وكانت تخمينات نفقاته ٨٠٠٠ . وبلغت نفقات الميل الواحد في بعض الاحيان ٣٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية . وهكذا استطاعت الرأسمالية الانكليزية ان تبتز من الشعب الهندي مبلغ ٢٢٥ مليون ليرة انكليزية فتمد السكك الحديدية للأغراض الحربية والاستثمارية المحضة . وقد بلغت خسائر هذه السكك حتى سـنة ١٩٠٠ (٤٠) مليون ليرة انكليزية تحملها الشعب الهندي[٣].

وقد أعدت الحكومة البريطانية على نفقـة الهنود وسائل الدفاع

---

(١) Beauchamp ص ١٠٢

(٢) ص ٤٩ من : The Colonial Policy of British Imperialism. By Ralph Fox

(٣) Beauchamp ص ٤٤ — ٥٥

عن مصالح الرأسمالية في الشرق . فكان الجيش المستخدم لاخضاع البلاد واستعمار الاقطار المجاورة يستوفي نفقاته من خزينة الهند . وكانت نفقات الجيش البريطاني في الهنـــد تزيد في بعض الاحيان — بسبب سياسة التبذير — على نفقات جميع القوى الانكليزية التي عداها . وقد أدى اتباع سياسة التبذير في الصرف على الجيش وعلى وسائل الدفاع من ســـكك وغيرها والانفاق على الحروب الاستعمارية الى ظهور العجز باستمرار في ميزانية الهند والى تراكم الديون — التي كانت تستقرض من الرأسماليين الانكليز بفوائض عاليـة — حتى بلغت سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ (٧٢٨) مليون ليرة انكليزية . وقد بلغت نفقات قوة الدفاع ســـنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ (٣٧٦٥٠٠٠٠٠٠) ليرة انكليزية أي ما يعادل ٤٠ في المائة من اعتمادات الميزانية العامة . وبلغت هذه النفقات مع نفقات السجون والشرطة في نفس السنة (١٩ ، ٥٦) مليون ليرة انكليزية أو ما يعادل (٥١ ، ٣٢) في المائة من اعتمادات الميزانية بينما كانت نفقات المعارف (٤٢ ، ٦) في المائة فقط[١] . كل ذلك كان لحساب الرأسمالي الانكليزي الذي لا يستفيد منها لضمان مصالحه فحسب وانما يستفيد كذلك من تراكم الديون على الخزينة أيضاً . حتى ان خزينة الهند تدفع سنوياً ٣٥ مليون ليرة انكليزية لتسديد فائض هذه الديون والعلاوات اجازات الموظفين الانكليز ونفقات سفرهم ورواتب المتقاعدين منهم وغير ذلك من النفقات المخصصة لمصلحة الاســـتعمار والمستعمرين[٢] .

---

(١) Beauchamp ص ٧٦ — ٧٨ و ص ١٢٠ (٢) Fox ص ٤٠

ويبلغ عدد الشركات الاجنبية التي تستثمر اموالها في الهند ٦٣٤ شركة برأس مال يقدر بمليارين ونصف مليار من الدولارات ، وعدد الشركات المؤلفة في الهند ٥١٩٤ شركة برأس مال قدره مليار دولار ، وينوف مقدار رؤوس الاموال المستثمرة خارج هذه الشركات على المليارين من الدولارات ، ومقدار الديون العامة على ثلاث مليارات ونصف مليار دولار . وتبيع المصانع البريطانية من مصنوعاتها في الهند ما تبلغ قيمته نصف مليار دولار في السنة ، وتستورد من الهند من المواد الخام ما تبلغ قيمته خمسي المليار من الدولارات . وتصرف مصانع النسيج الانكليزية في الهند من المنسوجات ما تساوي قيمته ٢٢٥ مليون دولار في السنة . وتبيع مصانع الحديد والفولاذ ومعامل السيارات في الهند من مصنوعاتها ما تبلغ قيمته مائة مليون دولار . وتصدر الهند الى انكلترة من الشاي ما تبلغ قيمته ١٢٠ مليون دولار ، ويستخرج من مناجمها ما يقارب العشرين مليون طن من الفحم في السنة ، ومن مناجم الحديد مقداراً غير يسير . وفي الهند مقادير كبيرة لمختلف المعادن وموارد جسيمة لم تستثمر بعد[1] .

من هذا يتبين للقارئ ان علاقة الرأسمالية البريطانية بالهند علاقة حياة وممات ، فالرأسمالية الانكليزية ، لاسيما في الوقت الحاضر بعد ان اشتدت المنافسة بينها وبين الرأسمالية في اميركا واليابان ، لم تعد تستطيع الحياة من دون الهند . على ان ادراك الرأسماليين أهمية الهند لحياتهم ليست بنت اليوم ، فقد

---

(١) ص ٢٩١ — ٢٩٢ من : Imperialism, and World Politics. By Parker Thomas Moon.

أدركوها منذ فجر حياتهم لاسيما بعد ان خسروا مستعمراتهم في اميركا الشمالية التي انفصلت عن جسم الامبراطورية والفت من نفسها الولايات المتحدة الاميركية ، وبعدما تبين لهم ان مستعمراتهم المقطونة من قبل الاوربيين في اميركا وافريقيا واستراليا لا يمكن ان تستغل من قبلهم على الوجه المطلوب وانها لابد ان تحذو حذو المستعمرة الاميركية الكبرى فتنفصل عن جسم الامبراطورية . كما ان مجال الاستغلال في هـذه المستعمرات ضيق جداً بالنسبة للهند ذات الخيرات الوفيرة التي يقطنها ٣٥٠ مليون نسمة من البشر الصالحين للعمل بازهد الاجور . لهذا كله اصبحت الهند مدار السياسة الامبراطورية مذ قبض الرأسماليون على زمام الحكم في بريطانية بعد الثورة الصناعية .

* * *

كان بطرس الاكبر ، مؤسس روسية القيصرية ، أول من فكر بجد في فتح الهند وقدّر قيمتها من رجال اوربا الحديثة . وقد هاجم بلاد ايران أثناء الفتح الافغاني بقصد الوصول اليها فاخفق . على ان التفكير في أهميتها ولزوم الاستيلاء عليها لازمه الى آخر حياته ، فاوصى خلفاءه بتحقيق أمنيته هذه اذ ورد في الفقرة التاسعة من وصيته لهم :

« تقدموا ما استطعتم من القسطنطينية والهند ، فان من »
« يحكمهما يكون سيد العالم من غير منازع . أشهروا من أجل »
« ذلك ، الحروب المتواصلة على تركية وايران وأنشأوا »
« المراسي على البحر الاسود واستولوا على قطع من »

« الارض فيه ، وفي البلطيق ايضاً ، لأنها لازمة لتحقيق »
« خطتنا . واذا ما سرى الانحلال في بلاد ايران فتوغلوا »
« فيها حتى تبلغوا سواحل الخليج فتعيدوا الحيـــاة الى »
« الطرق التجارية القـــديمة مع الشرق الادنى ان »
« استطعتم ، ثم واصلوا السير الى الهند محط كنوز العالم . »
« فاذا ماوصلنا اليها فلا تعود لنا حاجة بذهب انكلترة[1] »

ولم تكن هذه الكلمات لتثير مخاوف الانكليز لو لم يأت نابليون و يعمل بجد لمهاجمة الهند و يضع الخطط الحربية لذلك بالاشتراك مع بولص قيصر الروس ومع الاسكندر الاول من بعده .

ومع ان رغبة نابليون في الاستيلاء على الهنـد تولدت فيه — على ما يظن — منذ أول نشأته لما طالع كتب مشاهير التاريخ القـــديم مثل الاسكندر الكبير ورأى ان الشرق كان قبلة آمالهم وقوام عظمتهم وصار يحلم ان يكون له من الشهرة مثل ما كان لهم ، الا ان الدوافع الفعلية لاهتمامه في أمر مهاجمة الهند ترجع الى رغبته في ان ينازل انكلترة في الشرق بعد ان عجز عن منازلتها في اوربة بسبب افتقاره الى اسطول بحري يستطيع ان يقابل به الاسطول الانكليزي ، وكان يعتقد ان في انتزاع الهند من انكلترة او قطع طرق اتصالها بها ضربة قاضية على بريطانية . فحمله هذا الاعتقاد على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها وايفاد الرسل منها الى رجال الشرق يخطب

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٢٥٤ و ص ٦٢ من كتاب :
Hamilton, Angus, Problems of The Middle East. (London 1909)

ودهم ويهيئ أفكارهم لمقدمه . ومن بين رسائله الى بعض الامراء في الشرق رسالتان ، إحداهما الى إمام مسقط والاخرى الى « تيبو صاحب » أحد امراء الهند الناقمين على الانكليز أرسلها اليه داخل كتابه الى الإمام . وهذا نصهما[1]:

« القاهرة في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ .

« الى إمام مسقط .

« أكتب اليك لاعلمك بوصول الجيش الفرنسي الى »
« مصر . وبما انك كنت على الدوام حافظاً لولائنا »
« فكن واثقاً من رغبتنا في حماية السفن التجارية التي »
« ترسلها الى السويس . الرجاء ايصال الكتاب المرسل »
« بطي كتابك هذا الى تيبو صاحب في أول فرصة . »

الامضاء : « بونابرت »

« الى تيبو صاحب

« لابد وقد بلغك نبأ وصولي الى سواحل البحر الاحمر »
« على رأس جيش جرار لا يغلب . اود ان اسمع اخبار »
« الوضع السياسي الذي انت فيه وارغب في ان »
« ترسل الى السويس رجالاً ذوي جدارة تثق بهم »
« للمداولة معهم . »

الامضاء : « بونابرت »

---

(١) Miles ص ٢٠

وفاوض نابليون القيصر بولص فى الوقت عينه فاتفقا سنة ١٨٠٠ على ان يسير كل منهما الجيوش الى باكو لتعبر بحر قزوين الى استراباد فالمشهد فهيرات ، لكن هذه الخطة اهملت على أثر اغتيال القيصر ومغادرة نابليون مصر على جناح السرعة لامور استدعت حضوره فى باريس (١) .

على ان نابليون استمر فى مسعاه لتحقيق مقاصده فى الشرق ، وكانت خطته الثانية ان يعتمد على فرنسة وحدها ، ويستعين بالنقمين من امراء الهند ، ويسلك طريق الفرات . ورأى ان يرسل فى الخفاء ، قوة كافية تنزل على مقربة من خليج الاسكندرونة حيث يكون فى انتظارها أحد الثقاة من رجاله ليقودها الى مرعش ، وهي قرية اختارها ليستفيد من الغابات المحيطة بها فى بناء السفن لتحمل جنوده فى الفرات الى البصرة . وكان ينوي تحصين البصرة واتخاذها مقراً لجيشه وتدابيره السياسية والعسكرية (٢) .

وقد فاوض الاتراك سراً للاذن بمرور جيشه (٣) . وكان وكيل فرنسة السياسي يسعى لتهيئة الاذهان فى الشرق الاوسط ويفاوض الشاه بشأن هذه الحملة . ولم يصغ الشاه لأقوال فرنسة الا لما اقترحت سنة ١٨٠٤ ان تتفق معه ضد روسية ، لكنه بقي متردداً بين قبول اقتراحها والاتفاق مع الانكليز وكانوا يفاوضونه ايضاً . واخيراً وافق على الاتفاق مع فرنسة لما جاء السكولونيل روميو ، وكانت الحرب قد نشبت بين ايران وروسية ، يحمل اليه مسودة

---

(١) Sykes ج ٢ ص ١٨٧ — ٢٩٨ و Curzon ج ٢ ص ١٨٧

(٢) Chesney ج ١ ص ٥٣٦

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٣

اتفاقية تعهد نابليون فيها ان يعينه على استرجاع جورجية ويجهزه بالمؤون والمعدات الحربية ، وكان نابليون يعرف مدى التأثير السيئ في نفس الشاه لاستيلاء الروس على جورجية فاراد ان يستفيد من ذلك ويستعين بالشاه لمهاجمة الهند .

وأرسل الشاه المرزا رضا ممثلاً من قبله الى البلاد الفرنسية فامضى معاهدة فنكنستاين (Finkenstien) في مايس سنة ١٨٠٧ ووافق الشاه بموجبها على ضم قواه الى جيوش فرنسة في فتح الهند . وقد وصلت بعد امضائها ببضعة أشهر بعثة الجنرال غاردان (Gardanne) — وفيها سبعون ضابطاً — لتدريب الجيش الفارسي على الاساليب العسكرية الاوربية . والمظنون ان نابليون أراد ان يستفيد مما تدرب به من الجند في حملته على الهند[١] .

وعين نابليون احد قواده حاكماً على الممتلكات الفرنسية في الشرق ليترقب حركات الانكليز في الهند ويقف على صلاتهم بالامراء ويسعى لتهيئة الاذهان لمقدم الحملة ويرسل التقارير عن الحالة ويقدر ما تحتاج اليه الحملة من المعدات والمؤون . وقد أرسل هذا ممثلاً من قبله الى سلطان مسقط ليتداول معه ويحمله على الاتفاق مع فرنسة ، غير ان السلطان أبى ان يباحثه في غير ما يتعلق بالشؤون التجارية خوفاً من الانكليز وقد سبق ان تعهد لهم بان لا يتصل بالفرنسيين[٢] .

ولما عقد الصلح بين نابليون والقيصر الاسكندر الاول استبدل نابليون

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٢

(٢) Miles ص ٣٠٠ — ٣٠١

هذه الخطة باخرى . وقد تضمنت « معاهدة تلست » خلاصتها وهي ان :

« تسير فرنسة وروسية مشتركتين ، جيشاً مكوناً من »
« سبعين الف محارب الى ضفاف السند ، على ان تسمح »
« النمسة بمرور الجيش الفرنسي من بلادها وتساعده على »
« قطع الدانوب الى البحر الاسود . وان يتجمع الجيش »
« الروسي المؤلف من خمسة وعشرين الفاً من الجنود »
« النظامية وعشرة آلاف من القوزاق فى استراخان ، »
« ومنها يقطع بحر قزوين الى استراباد حيث يبقى ريثما »
« يصل الجيش الفرنسي اليها . »
« وان تكون استراباد مقراً للجيش ومخزناً للميرة والمؤون »
« ومركزاً للمواصلات بين فرنسة والهند وروسية . »
« وان تنقل الجنود الفرنسية المكونة من خمسة وثلاثين »
« الفاً على نهر الدانوب فى سفن توصلها الى البحر »
« الاسود . وتتولى روسية نقلها عبر هـذا البحر و بحر »
« آزوف . »
« وان يسير الجيشان بعد ذلك من استراباد الى المشهد »
« فهيرات فغزنه فقندهار حتى يبلغا السند . »

وقد قدرت مدة انتقال الجيش الفرنسي من الدانوب الى السند بمائة وتسعة عشر يوماً (١) .

---

(١) Chesney ج ١ ص ٥٣٦ — ٥٣٧

غير ان الظروف لم تمكن نابليون من تحقيق هذه الخطط الحربية اذ هوى من ذرى مجده سريعاً وانتهى الامر به الى سنت هيلانه القاحلة . لكن هذه الخطط أصبحت من بعده أساس السياسة البريطانية لحماية امبراطوريتها الهندية بعد ان أشار فيها نابليون الى جميع الجهات التي يتوقع ان تهاجم الهند منها فنبه الانكليز الى لزوم القبض عليها . وهذه الطرق ثلاثة :

طريق البحر الاحمر وطريق هيرات وطريق الفرات والخليج الفارسي .

اما الاول فقد سيطرت عليه بريطانية بسيطرتها على مالطة وقبرص ومصر والسودان وعدن والنواحي التسع المحمية وسواحل البلاد العربية والجزر القريبة منها .

وسدت طريق هيرات بضم بلوجستان الى الهند وتوطيد نفوذها في الافغان والتيبت والنصف الجنوبي من بلاد فارس .

اما طريق الفرات والخليج الفارسي فقد كان السبب في اهتمام بريطانية بطرق المواصلات بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وفي سعيها لتوطيد نفوذها في فلسطين وفي جزيرة العرب والعراق وسواحل الخليج .

وقد أعقب مساعي نابليون لمهاجمة الهند استبدال بريطانية سياستها في الشرق الاوسط وفي الخليج الفارسي والعراق ، وكانت تنطوي على حماية مصالحها التجارية فقط ، بسياسة استعمارية فتاكة استهدفت السيطرة على الشرق الادنى والاوسط وسد جميع السبل بوجه كل من تحدثه نفسه بمهاجمة الهند . وكان لهذا التبدل مظاهر شتى نقتصر على ذكر ما يتعلق ببحثنا منها :

كان من أول مظاهر هذا التبدل مقاومة بريطانية النفوذ الفرنسي في

بلاد فارس والخليج . اما في بلاد فارس فقد اوفدت الكابتن جون مالكولن سنة ١٨٠٠ ، على أثر سماعها بنوايا نابليون والقيصر بولص ، ليحمل الشاه على الامتناع عن الاتفاق مع الفرنسيين وعلى تشجيع التجارة الانكليزية والهندية ومقاومة شاه الافغان . وقد نجح في عقد اتفاقية تعهد فيها الشاه بان يبعد كل من يقيم في ايران من الفرنسيين[١] .

غير ان الفرنسيين استطاعوا بالرغم من مساعي بريطانية ان يتقربوا من الشاه ويتفقوا معه[٢] . ومما ساعدهم في ذلك بعد المسافة بين كلكته ولندن وتباطؤ الوزارة الانكليزية في تقرير السياسة المراد اتباعها في ايران . على ان نفوذ فرنسة تضاءل بعد عقد معاهدة تلست التي نكث فيها نابليون بوعوده للشاه بشأن استرجاع جورجية . فاغتنمت انكلترة هذه الفرصة واوفدت الكابتن مالكولن مرة اخرى سنة ١٨٠٨ . فلما لم ينجح في مفاوضاته أرسلت السر هارفورد جونسن الذي بين للشاه لزوم الاتفاق ضد روسية واستعداد انكلترة لأن تدفع له مئة وسبعين الف « تومان » في السنة خلال المدة التي تكون فيها ايران معادية لروسية ، فرضى الشاه بذلك ؛ وكان من أول نتائج هذا الاتفاق اخراج المدربين الفرنسيين من الجيش الفارسي والاستعاضة عنهم بالمدربين الانكليز[٣] .

وفي عام ١٨١٠ أوفدت انكلترة الكابتن مالكولن للمرة الثالثة فعقد معاهدة جديدة تعهد الشاه فيها ان يبطل جميع المعاهدات المضرة بمصالح

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

(٢) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٣

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

انكلترة المعقودة بينه وبين الدول الاوربية الاخرى وان لا يسمح لجيش اجنبي معاد لبريطانية بالمرور من بلاده وان يحمل امراء خوارزم وبخارى وسمرقند على مقاومة أي جيش يمر ببلادهم بقصد مهاجمة الهند. وتعهد الفريقان ان يتعاونا في رد أي تعد خارجي، واشترطت انكلترة ان يكون لها رأي في حل مشاكل الحدود بين روسية وايران وتعهدت مقابل ذلك ان تزيد المنحة السنوية الى مئتي الف تومان في السنة على ان يوقف دفعها اذا اشتركت فارس في حرب ضدها وان يشرف الممثل البريطاني على صرف هذه المنحة (١).

وطلبت حكومة الهند، عند سماعها بمراسلة نابليون سلطان مسقط، الى وكيلها في بوشهر ان يزور مسقط ويفاوض السيد سلطان بشأن عقد اتفاق سياسي لمقاومة النفوذ الفرنسي. وقد وقع المرزا محمد — وكيل حكومة الهند يومئذ — وسلطان مسقط اتفاقاً في هذا الشأن كان أول اتفاق عقده الانكليز مع مسقط، تضمن سبعة بنود تعهد فيها السلطان ان يبعد الفرنسيين عن بلاده ويسد موانيه بوجه سفنهم مدة الحرب بينهم وبين انكلترة، وان يستعين بمشورة موظف انكليزي يقيم في مسقط.

ولما سمع حاكم الهند بتجدد العلاقات بين السلطان والفرنسيين أوفد الكابتن مالكولن اليه فاجتمع به في هرمز في اوائل سنة ١٨٠٠ وتضمن حديثه معه تهديداً بغلق موانيء الهند من سورات الى كلكته في وجه سفن مسقط ومقاومة تجارتها، فلم يتردد السلطان بعد هذا في التوقيع على اتفاقية جديدة رضي فيها باقامة وكالة سياسية للانكليز في مسقط (٢).

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠٨ (٢) Miles ص ٢٩١ — ٢٩٣

وأخذت بريطانية تسعى بجد لبسط سيطرتها على سواحل الخليج وتتذرع بأتفه الحوادث لسوق الحملات البحرية على القبائل فيها ، وأنزلت في عام ١٨٠٥ ، أول ضرباتها بقبائل الجواسم ، وكانت أشد قبائل السواحل المهادنة شكيمة ؛ وعقدت معهم المعاهدات التي سلبت بها سيادتهم شيئاً فشيئاً . وكانت اولى هذه الاتفاقيات اتفاقية سنة ١٨٠٦ التي اشترطت فيها عليهم احترام راية الشركة وعدم التعرض لسفنها والتابعين لها ، غير ان القبائل لم تلتزم بنصوصها واستمرت على سيرتها الاولى فهاجمت البحرين وطردت منها جنود عمان ، وكانت قد احتلتها كما مر بنا في الفصل السابق ، فساقت عليهم الشركة حملة اخرى دمرت (رأس الخيمة) وأحرقت ما يزيد على المئـــة من سفنهم وأجبرتهم على عقد اتفاقية سنة ١٨٢٠ ، وفيها خطت السواحل المهادنة الخطوة الاولى في الدخول تحت الحماية البريطانية ؛ وعقدت في الوقت عينه اتفاقية اخرى شبيهة بهذه الاتفاقية مع البحرين .

ولم تقف بريطانية في جهودها عند هـــذا الحد فقد أرسلت الخبراء البحريين لمسح سواحل الخليج ودرس المراكز المهمة فيه . وكان من أشهر هؤلاء الخبراء ، الليوتننت ولستيد من رجال اسطول المحيط الهندي ، وقد وصل مسقط في شباط سنة ١٨٣٥ فدرس السواحل ووصفها أحسن وصف وأخرج لها أول خارطة عصرية [١] .

واستبدلت بريطانية تأسيساتها التجارية في الخليج بتأسيسات سياسية مجاراة للأحوال الحادثة ، فقلبت وكالتها التجارية في بوشهر الى وكالة

---

(١) Wilson ص ٢٧٧ — ٢٨٤ و Miles ص ٣٣٧ — ٣٣٨

سياسية عام ١٨١٢ وفعلت مثل ذلك في بقية مراكزها في الخليج عام ١٨٢٢ . وكانت وزارة الخارجية حتى بداية القرن التاسع عشر لا تطلع على غير النزر اليسير مما يجري في ايران والخليج والبلدان المحيطة به ولكن التقارير المسهبة عن كل ما يحدث في هذه الجهات أخذت تتوالى على وزارة الخارجية البريطانية حتى اضطرت الحكومة الانكليزية ان تؤسس فرعاً خاصاً بشؤون هذه الجهات استخدمت فيه طائفة كبيرة من الخبراء ، وكانت حكومة مقاطعة بومبي تعين الوكلاء في بغداد والبصرة وبوشهر ومسقط فتولت حكومة الهند نفسها أمر هذه التعيينات[1].

واتخذت سياسة بريطانية في العراق عين هذا المجرى فقوى وكلاء الشركة علاقاتهم بالولاة ، وكانت قد تحسنت صلاتهم بهم كما مر بنا في الفصل السابق ، وأخذوا يسعون في تقوية نفوذهم بواسطة جلب الاسلحة والمعدات الحربية الى الولاة ومساعدتهم في مقاومة المنافسين لهم على مناصب الولاية في الاستانة . وتوسعت دائرة نفوذهم فامتدت من المدن الى القرى والقبائل ؛ وكان الولاة يغضون الطرف عن هذا الامر الخطير المخل بسيادة الدولة والمخالف لقواعد التمثيل السياسي والتجاري .

ولما أحس الانكليز بعزم نابليون على مهاجمة الهند ، كما مر بنا ، عينوا في بغداد مقيماً سياسياً دائمياً ، رقي الى درجة قنصل سنة ١٨٠٢ ، واصبحت بغداد مقراً للنفوذ البريطاني في هذه الربوع . وقد عين لهذا المنصب سنة ١٨٠٨ رجل قدير يدعى المستر كلوديوس جيمس رج (Claudius James Rich)

---

(١) Curzon ج ٢ ص ٥٥٣

تمكن مدة الثلاث عشرة سنة التي قضاها في بغداد من مضاعفة نفوذ القنصلية ورفع مستواها حتى اصبحت مقراً للطبقة العليا وملتقى كبار الموظفين والوجهاء ومضيفاً للزائرين ومعهداً للأبحاث الأثرية ، مما أدى الى استياء داود باشا فوقع الخلاف بينهما وأعلن الباشا الغاء جميع ما للاوربيين من الحقوق في بغداد ، ثم ضاعف الضرائب الكمركية على البضائع الانكليزية وأخذ يعرقل امور القنصل حتى اضطر الى طلب مغادرة بغداد ، فلم يأذن له بمغادرتها الا بعد أخذ ورد بين حكومة الهند و بغداد والاستانة[1].

على ان هذه الحال تبدلت بخروج داود باشا من بغداد فعاد نفوذ الانكليز الى ما كان عليه من قبل واستمر يتوسع بسبب خوف الولاة من كتابة القنصل الانكليزي الى الاستانة عن الاحوال في العراق والبلاد العربية واظهار ضعف الولاة واهمالهم شؤون الدولة واشتغالهم لمنافعهم الخاصة[2].

ولما عرف شيوخ القبائل بما للمقيم الانكليزي من النفوذ وأحسوا انه يستطيع ان يساعدهم في مقاومة الولاة والسعي لتبديلهم بالكتابة الى الاستانة تقربوا اليه وخطبوا وده . ويذكر للستر لونكرك ان هذه الفئة أحست يومئذ بان موقف بريطانية في القرن العشرين سيختلف عن موقفها في القرن التاسع عشر ، أي انها ستمثل في القرن العشرين دوراً سياسياً خطيراً يستلزم توطيد صلات رجال القبائل معها . ولا نعرف أكان هذا الشعور منبعثاً من أهل العراق أنفسهم أم انه كان من وحي الوكلاء البريطانيين في

---

(١) Longrigg ص ٢٥٤ — ٢٥٦

(٢) Longrigg ص ٢٧٧

هذه البلاد ؟ ومهما يكن الامر فانه يشير الى جهود كانت تبذل في طي الخفاء .

ولم تنقض آخر سني القرن التاسع عشر حتى أصبح وكيل انكلترة في العراق ممثلاً ممتازاً ومعاون الوكيل في البصرة قنصلاً ، ووكيلها في الموصل معاون قنصل[1] .

* * *

ونشأت لانكلترة في الخليج وفي البلاد المحيطة به ، على أثر هـذا التبدل في سياستها الامبراطورية ، مصالح اخرى على جانب عظيم من الخطورة ، ومن أهمها قضيتا المواصلات والمخابرات بين الامبراطورية في الشرق ومرجعها في لندن . فقد اضطر الانكليز بعد ان أبدلوا سياستهم التجارية بهذه السياسة الاستعمارية الى ان يعملوا على ربط أطراف الامبراطورية بلندن باحدث وسائل المواصلات والمخابرات ليكونوا على علم بكل ما يجري في الشرق وعلى استعداد لدفع ما قد يهدد امبراطوريتهم من الاخطار .

وقد أشرنا في بحث استعمار الهند الى أسباب تأسيس السكك الحديدية ومراكز البرق والبريد وسنأتي هنا على خلاصة عن مد الاسلاك البرقية بين لندن والهند على طريق العراق والخليج الفارسي ، الامر الذي جعل لهذه البلاد أهمية سياسية خاصة ، على ان نعود الى البحث في أمر طرق المواصلات في موضع آخر من الكتاب .

أحس الانكليز بالحاجة الى ربط الهند وبريطانية بالاسلاك البرقية قبيل

---

(١) Longrigg ص ٢٧٩ — ٢٨٠

منتصف القرن التاسع عشر لما رأوا ان انقضاء ثلاثة أشهر على ارسال الكتاب واستلام جوابه لم يبق ملائماً لمصالحهم الاستعمارية الواسعة . وقد كانت فتنة تمرد الجنود الهندية فى البنغال و لاضطرابات التي وقعت على أثرها فى أطراف الهند من العوامل التي نبهت الانكليز الى لزوم تأسيس وسائل المخابرات الحديثة اذ كان تأخر المخابرات بين لندن ودلهي من أهم الاسباب التي أدت الى تفاقم الفتنة . وكان توسع المصالح التجارية والاستعمارية فى الهند وحاجة هذه المصالح الى وسائل المخابرات الحديثة ومساعي أصحاب مصانع الحديد لايجاد سوق جديد لصناعتهم النامية من جملة العوامل التي ساقت الحكومة البريطانية الى الاهتمام بشؤون المخابرات ايضاً .

وقد حاول الانكليز سنة ١٨٥٩ ان يوصلوا لندن بالهند بالاسلاك البرقية عن طريق البحر الاحمر ففشلوا ، ولذلك فاوضوا الحكومة العثمانية فى السنة عينها لربط خط اسكدار ببغداد فالهند فوافقت . وعلى أثر ذلك أرسلت حكومة الهند الكولونيل باتريك ستيورد ليدرس سواحل الخليج استعداداً لمد أسلاك بحرية تتصل فى الفاو باسلاك برية تربطها بالخط التركى فى بغداد . وقد ابتدأ العمل فى هذا الخط سنة ١٨٦٣ وانتهى سنة ١٨٦٩[1] .

وقررت حكومة لندن إقامة خط آخر احتياطي يمر بالاراضي الفارسية ؛ وتم لاتفاق بينها وبين الشاه على مده بين بغداد وطهران عن طريق كرمنشاه على ان يتصل ببوشهر عن طريق اصفهان وشيراز ثم بالهند عن طريق البحر .

ثم أنشأت خطين آخرين ربط الاول الخط الفارسي بالخط الروسي

---

(١) Longrigg ص ٢٩٧ و Curzon ج ٢ ص ٦٠٧

الاوربي عن طريق القفقاز ، وكان الثاني خطاً مزدوجاً قيم بطريق طهران وخصص للمخابرات مع الهنـــد فقط ، وقد افتتح فى ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٧٠ .

والف الانكليز الشركة الشرقية سنة ١٨٦٧ لاعادة محاولة مد الخط البحري ، بعد ان فشلوا في المـرة الاولى ، فتمكنت من وضع الاسلاك البحرية بين انكلترة وجبل طارق ثم في البحر الابيض المتوسط الى مالطة فالسويس فعدن . وقد افتتح هذا الخط سنة ١٨٧٠ .

ولابد من ان يتبين القارئ أهمية العراق والخليج في أمر المخابرات البرقية بعد ان رأى مما مر بنا لزوم هذه الخطوط للمصالح الاستعمارية في الهند وحاجة الرأسمالية الصناعية في انكلترة اليها وعرف ان لا سبيل لهذه الخطوط من الوصول الى الهند الا بعد المرور بهذه الطرق ، لوعورة الطريق البري في شمال الهند ، ولعدم استقرار الامور في الافغان .

وقد تمكن الانكليز في مدة وجيزة من مد الخطوط البرية والبحرية الآتية ، بين الهند وأطراف الخليج فكان لذلك أثر عظيم في توسع مصالحهم الاستعمارية في الخليج وفي البلاد المجاورة له :

١ — الخط البحري بين كراچي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٨ .

٢ — الخط البري المزدوج بين كراچي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٩ .

٣ — الخط البحري بين جسك وهنجام وقد تم انشاؤه سنة ١٩٠٤ .

٤ — الخط البحري بين هنجام وبوشهر وقد اكمل سنة ١٩٠٤ كذلك .

٥ — الخط البحري بين جسك وبوشهر وقد اكمل سنة ١٨٨٥ .

٦ – الخط البحري البري بين هنجام وبندر عباس ماراً بالجزيرة الطويلة وقد اكمل سنة ١٩٠٥ .

٧ – الخط البحري بين بوشهر والفاو وقد افتتح سنة ١٨٦٤ .

٨ – الخط البحري بين جسك ومسقط وقد افتتح سنة ١٩٠١ .

* * *

ومع ان هذا الانقلاب في السياسة البريطانية في الخليج وفي البلاد المحيطة به أدى الى ان تتقدم المصالح السياسية الاستعمارية على المصالح التجارية فيه ، وكانت هي المتقدمة من قبل ، غير ان الرأسماليين الانكليز لم يكن ليفوتهم تقدير المجال الواسع الذي سينفسح لبضائعهم بعد ان بسطت بريطانية نفوذها في الخليج وفي البلاد المجاورة له . وكان ضعف النفوذ البريطاني في الخليج قد أدى الى ان تفكر شركة الهند الشرقية بقطع صلاتها التجارية به بعد ان اشتدت منافسة الهولانديين لها فيه [1] . غير ان هذا التبدل في سياسة بريطانية في هذه الجهات بعث الحياة في تجارتها ، وكانت الحكومة البريطانية نفسها تعمل على تقوية هذه المصالح التجارية لتتخذ من ذلك ذريعة للتدخل في شؤون الخليج ومبرراً في انفاق ما تجمعه من دافع الضريبة في سبيل تأمين مصالح الاستعمار الذي تنحصر فائدته بالرأسماليين وحدهم .

وكانت الحكومة الانكليزية تحبذ المتاجرين الاتصال بهذه الجهات وتصور لهم الخليج موصلاً للأسواق وملتقى للطرق التجارية العظيمة التي

---

(١) Curzon ج ٢ ص ٥٣٣

تخترق بلاد فارس فتتصل بالهند وتركستان والصين ، والبصرة ميناءً خطيراً وفناً لتجارة العراق والشرق الادنى ، والقبائل العربية في صحاريها مصرفاً عظيماً فهي تمد بالملايين واذا اشترى كل فرد من جموعها ذراعاً من المنسوجات القطنية كل سنة صرفت منشستر الكميات الجسيمة من منتوجاتها .

وكان وضع الخليج والبلاد المحيطة به مما يغري الباحثين عن الاسواق والمواد الخام ، اذ ان الموانئ على سواحل الخليج الشرقية هي رؤوس طرق قديمة مهمة كطريق بندر عباس الذي يتصل بكرمان فيزد فالمشهد ، وطريق لنجه الذي يؤدي الى لورستان ، وطريق بوشهر الذي يتصل بشيراز والطريق الذي يوصل المحمرة بششتر .

وكان العراق فيما مضى ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب . وكانت البصرة من أهم موانئ العالم ، تأتي السفن التجارية اليها من المحيط الهندي ومن جهات الخليج تنزل فيها أحمالها فتنقل منها الى بغداد وتوزع على ثلاثة طرق : يتصل الاول بالموصل ، عن طريق دجلة ، ثم بحلب ؛ ويتصل الثاني بالفلوجة ، وكانت القوافل تقطع منها صحراء الشام الى سورية ؛ ويتصل الثالث بايران عن طريق كرمنشاه . ولا تزال هذه الطرق باقية آثارها حتى الوقت الحاضر (١) .

ومن اولى البعثات التي أوفدها الانكليز الى العراق بعثة جسني (Chesney) التي سمت لدرس شؤون العراق التجارية والاقتصادية ، بالاضافة الى الامور السياسية الاخرى التي جاءت من أجلها فتكهنت بمستقبل باهر

---

(١) Earle ص ٢ — ٣

للتجارة بعد ان يصبح الفرات صالحاً لسير السفن ويكون طريق التجارة بين البحر الابيض والخليج .

وكان مما زاد في قيمة هذه البلاد التجارية بنظر البعثة قدرتها لشراء مقادير كبيرة من مواد التجارة الانكليزية الهندية كالسكر والشاي والمنسوجات القطنية . وكان من رأي البعثة ان الانكليز لو اتجروا معها رأساً لتضاعفت قدرتها على الشراء ، اذ كان التجار من الوطنيين يبتاعون البضائع بعد ان تمر بايدي كثير من الوسطاء فتتضاعف أسعارها ، حتى ان البعثة لاحظت ان قطعة من القماش قيمتها في منشستر لا تزيد على ثلاثة عشر شلناً كانت تباع في هذه الاسواق باثنين وثلاثين شلناً ، بينما لو استوردتها شركة انكليزية لاستطاعت ان تنزل هذا السعر الى النصف فتضاعف بذلك قدرة السوق للشراء . ولاحظت البعثة ان التجارة الروسية كانت تهدد التجارة الانكليزية في أسواق ايران والعراق وكردستان لأن أسعار بضائعها كانت أقل بكثير من أسعار البضائع الانكليزية .

ورأت البعثة ايضاً ان صادرات العراق ومن أهمها الحبوب والتمر ومواد اخرى لازمة للصناعة الانكليزية كالصوف والجلود والعفص وعرق السوس والثمار المجففة وشمع العسل والزرنيخ ، ليس مما يجوز اهماله . كما ان في استطاعة ايران ان تصدر مقادير لا يستهان بها من هذه المواد عدا ما تصدره من السجاد والثمار المجففة والقطن . وكانت جميع هذه المواد تباع باسعار بخسة جداً ، فالقنطار من العفص الجيد مثلاً كان يباع في أسواق الموصل بتسعمائة وثلاثين غرشاً ، ويكون سعره بعد نقله الى الاسكندرية نحو الف وثلثمائة غرشاً ، أي

ما لا يزيد عن اثنين وخمسين شلناً . وتبين للبعثة ان الشركات لو ضبطت تجارة الموصل لتم لها القبض على تجارة ديار بكر وماردين ، وهما مركزان لا يستهان بهما اذ تمتد منهما الطرق التجارية الى آسية الصغرى وفيها أسواق واسعة للسكر والمنسوجات القطنية والحريرية[١].

* * *

ولما اشتدت المنافسة الاستعمارية بين انكلترة وروسية القيصرية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، قدم اللورد كرزن — الاستعماري المتطرف الذي كان نائباً للملك في الهند — للوزارة البريطانية بتاريخ ٢١ ايلول سنة ١٨٩٩ بياناً مفصلاً حول أهمية الخليج والاراضي المحيطة به ولزوم تقوية النفوذ البريطاني فيه لضمان سلامة الهند ، وأظهر الحاجة الى سلوك سياسة جديدة تكون أكثر حزماً واقداماً[٢] ، فايد اللورد هملتون ، وكان وزير الهند ، في جوابه المؤرخ في ٦ تموز سنة ١٩٠٠ رأي حكومة الهند وطلب اليها ان تضاعف الجهود في رعاية مصالح الامبراطورية في هذه الاماكن ، وان تحتاط الى ما قد يأتي به المستقبل ، وأشار من طرف خفي الى جهود كانت تبذل يومئذ لتثبيت نفوذ انكلترة في البلاد المحيطة بالخليج[٣].

وكانت روسية كلما حاولت ان تؤسس لها محطة في الخليج وجدت في معارضة انكلترة عقبة لا تستطيع التغلب عليها ، حتى عمدت مرة الى الاحتيال

---

(١) Chesney ج ٢ ص ٧٠٢ — ٧٠٣

(٢) British Documents. Vol. IV ص ٣٥٨ — ٣٦٢

(٣) British Documents. Vol. IV ص ٣٦٤

ولـكن الانكليز فطنوا الى دخيلة الامر فلم يمكنوها من تحقيق أمنيتها . وذلك ان احدى السفن الروسية رست في بندر عباس واشترت كمية كبيرة من الفحم شحنت قسماً منه وادعت انه لم يبق مكان للقسم الآخر فارادت ان تبقيه فى الميناء على ان تعود لشحنه ولـكن الانكليز طلبوا الى حكومة الشاه ان ترفض طلب السفينة الروسية وتصر على لزوم شحن الفحم بأجمعه ففعلت

ثم شاع ان روسية تنوي إقامة خط حديدي تكون نهايته الـ ت ، فاحدث ذلك ضجة عظيمة فى الاوساط السياسية الانكليزية ساقت الحكومة الى عقد اتفاقية جديدة مع أمير الـكويت حددت حرية تصرفه باملاكه ، وأعلن اللورد لونسدون « تصريحه الشهير » فى قاعة مجلس اللوردات فى ٥ مايس سنة ١٩٠٣ حيث قال ، مهدداً الدول ولاسيما روسية والمانية :

« اننا نعتبر تأسيس أي دولة اخرى قاعدة بحرية او ميناءً محصناً فى الخليج الفارسي تجاوزاً على المصالح البريطانية من واجبنا ان نرده بكل ما لدينا من الوسائل[1] . »

وكاد يكون تنافس الدولتين على الخليج سبباً فى نشوب حرب بينهما . على ان انكلترة جنحت للحكمة فى التفاهم بعد ان دخلت المانية ميدان التنافس ايضاً . وأيد سياسة التفاهم فريق من الساسة الانكليز فى طليعتهم السر اوكونور ، سفير بريطانية فى استانبول[2] . فانتهى الامر بعقـد « اتفاقية

---

(١) ص ١٣٤٧ — ١٣٤٨ من محاضر جلسات مجلس اللوردات :
House of Lords, Forth Series, Vol. 121, 1903

(٢) British Documents, Vol III ص ٣٨٢

سنة ١٩٠٧ » بين انكلترة وروسية التي سويت بها اختلافات الدولتين فيما يتعلق بمطامعهما الاستعمارية فى ايران والتيبت والافغان . وقد قسمت بلاد ايران بمقتضى هذه الاتفاقية الى ثلاث مناطق نفوذ ؛ تكون الشمالية منها منطقة نفوذ لروسية القيصرية ، والجنوبية منطقة نفوذ لبريطانية ، وتكون المنطقة الوسطى منطقة محايدة تشترك الدولتان فى تقرير مايتعلق بها . وبهذه الاتفاقية تخلصت انكلترة من المنافسة الروسية فى سواحل الخليج الفارسي اذ لم يبق لروسية طريق الى الوصول اليها .

* * *

ونشأت في أوائل القرن العشرين مصالح اخرى لبريطانية في الخليج باكتشاف النفط في ايران . وذلك ان وليم نوكس دارسي ، وكان محام في استرالية أثرى باكتشاف معدن الذهب في قطعة أرض كان يمتلكها هناك ، سمع بوجود النفط في بلاد ايران فاوفد أحد الجيولوجيين ليستطلع الامر فلما استوثق منه جاء الى ايران واستطاع ان يقنع الشاه سنة ١٩٠١ بان يمنحه امتياز استخراج النفط والغاز والزفت في البلاد الايرانية عدا المقاطعات الخمس الشمالية . ولما باشر العمل وجد ان ما كان لديه من المال لا يكفي للقيام بهذا المشروع الجسيم فاضطر ان يفاوض الرأسماليين الانكليز فتألفت شركة النفط الانكليزية الفارسية سنة ١٩٠٩ لاستخراج النفط بمقتضى الامتياز الذي استحصله دارسي[1] .

ولما أدرك الساسة الانكليز ورجال الاسطول ان سيكون للنفط أهمية

---

(١) Moon ص ٢٨٦

كبرى في الحروب المقبلة تدخلت الحكومة الانكليزية في شؤون هذه الشركة ، وأوفد السر ونستن شرشل — وكان وزيراً للبحرية — بعثة لدرس ميادين النفط الفارسية وتقديم تقرير عن درجة أهميتها للاسطول البريطاني ، وقررت الحكومة البريطانية على أثر ادلاء هذه البعثة بنتائج درسها ان تؤيد شركة النفط الانكليزية الفارسية في بلاد ايران ، ثم صرح المستر شرشل في مجلس العوام في تموز سنة ١٩١٣ ان وزارة البحرية مزمعة على امتلاك عدد من الحصص يضمن لها السيطرة في ادارة الشركة وتجهيز الاسطول بما يحتاج اليه من هذه المادة الحيوية . وقد تحقق ما صرح به المستر شرشل بعد ذلك ببضعة أشهر (سنة ١٩١٤) . وهكذا أصبحت الحكومة البريطانية تملك القسم الاعظم من أسهم هذه الشركة وتحتم عليها ان تحمي مصالح هذه الشركة بقوة السلاح ، ان استلزم الامر ، حتى كان السبب الاول للحملة التي جهزتها بريطانية على العراق عند إعلان الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١٤ ، كما ادعى الانكليز ، رغبة انكلترة في حماية منطقة شركة النفط الانكليزية الفارسية في عبادان .

وقد ازدادت أهمية الخليج من هذه الوجهة باكتشاف معدن النفط في البحرين واحتمال اكتشافه في اماكن اخرى من الخليج حيث قد نشطت الشركات الانكليزية في اجراء التحريات عن هذا المعدن الثمين .

وقد أصبح الخليج في الوقت الحاضر ، ولاسيما الجهة العربية منه ، ممراً لطائرات شركة الطيران الامبراطورية فاكتسب بذلك موقعاً جديداً في السياسة الامبراطورية بالنظر لأهمية الطيران في الوقت الحاضر وما سيكون له

من الاهمية في المواصلات والحروب في المستقبل . والانكليز في الخليج لآن ثلاث محطات طيران في الكويت والبحرين والشرجة .

وآخر ما جرى من التبدلات في الخليج تنازل بريطانية عن محطتي هنجام وباسيدو (الاولى فى جزيرة هنجام والثانية فى جزيرة قشم) بناءً على الاستياء الذي أثاره وجودها فى أملاك الدولة الايرانية و بالنظر الى مرور الخط الجوي البريطاني من سواحل الخليج الشرقية حيث كانت تريد الحكومة البريطانية — على ما يظهر — ان تمركز قواها .

وقد اتخذت الحكومة البريطانية مكاناً لائقاً فى الطرف الشمالي الشرقي من جزيرة البحرين لابتاعته وزارة البحرية الانكليزية من الشيخ عيسى الخليفة شيخ البحرين فى سنة ١٩٣٤ لتجعل منه محطة بحرية عوضاً عن محطتي هنجام و باسيدو ، وهو قريب من مكان صالح لرسو البواخر وفيه مجرى ماء صالح للشرب ، والمسافة بينه وبين عاصمة البحرين لا تزيد عن ثلاثة أميال[1] .

وقد صرح السر جون سيمون جواباً على سؤال وجه اليه فى هـــذا الموضوع فقال : « لقد توقف استعمال المحطة البحرية فى باسيدو بجزيرة قشم الايرانية من قبل سفن صاحب الجلالة منذ سنة ١٩١١ . وارتأت حكومة صاحب الجلالة مؤخراً ان المصالح البريطانية فى الخليج يمكن صيانتها على الوجه المطلوب بنقل هذه المحطة الى البحرين فى الجانب العربي من الخليج . والمفاوضات جارية الآن مع الحكومة الايرانية لصيانة المقبرة البريطانية

---

(١) التايمس اللندنية في ٨ نيسان ١٩٣٥

في باسيدو[١] » .

ومما هو جدير بالذكر ان الصحف البريطانية وفي جملتها التايمس اللندنية نوهت باعتبار البحرين تحت الحماية البريطانية فرد عليها وزير ايران المفوض في لندن بقوله « ان الحكومة الايرانية لم تعترف قط بالحماية البريطانية على البحرين وانها لا زالت تعتبرها جزءاً من الاراضي الايرانية ... كما ان ايران لم تتنازل عن سيادتها على البحرين كما يظهر من المخابرات بين الحكومتين حول هذا الموضوع ، وقد احتجت أخيراً على منح امتياز استخراج النفط في هذه المنطقة[٢] » .

وبريطانية مجدة في الوقت الحاضر في توطيد نفوذها في جهة الخليج العربية بالنظر الى التطورات التي حدثت مؤخراً في ايران . وقد حصنت الدبي قبل مدة وجيزة ، ويستدل مما جاء في صحفها انها تنوي تحصين مراكز اخرى في جهات الخليج العربية .

---

(١) التايمس اللندنية في ٤ نيسان سنة ١٩٣٥

(٢) Morning Post في ٩ نيسان ١٩٣٥

الفصل الرابع

وادي الفرات اقصر الطرق الى الهند

بعد ان أصبح أمر حماية الهند وتقريب المسافات بينها وبين انكلترة الشغل الشاغل للسياسة الامبراطورية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، و بعد ان أظهرت خطط نابليون لمهاجمة الهند ان طريق رأس الرجاء الصالح لم يبق صالحاً لضمان المنافع الاستعمارية في الهند ولدفع الاخطار التي تتهددها ، وان مصر — وهي الجسر بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر — موضع خطر على الامبراطورية اذا قبض عليه عدو لبريطانية ، رأى ساسة انكلترة ومن ورائهم رجال الرأسمالية فيها ان قد بات من المحتم عليهم مراقبة شؤون الشرق الادنى وحماية الدولة العثمانية من روسية والنمسة الطامعتين في اقتسام أملاكها على ان تبقى ضعيفة لا تستطيع ان تمنع تبسط النفوذ البريطاني في بلادها ، ورأوا كذلك ان يحولوا دون نشوء دولة قوية في مصر او سيطرة دولة أجنبية غير بريطانية على شؤونها . وكان من نتائج هذه السياسة ان مثلت بريطانية دوراً خطيراً في جميع أدوار القضية الشرقية ، وقاومت محمد علي الكبير لما أراد ان يوحد بين سورية ومصر ويؤسس فيهما دولة حديثة ذات شأن ، واشتركت في حرب القرم فارغمت قيصر روسية على نقض معاهدة سن ستيفانو مع الدولة العثمانية وقبول مقررات مؤتمر برلين الذي ربح فيه الانكليز جزيرة قبرص وحاولوا ان يرغموا السلطان على إدخال بعض الاصلاحات الطفيفة في مملكته المتداعية بقصد ابقاف تهدمها ولو الى حين . وكان أمر

حماية الهند وتقريب المسافة بينها وبين لندن كذلك من أهم الدوافع في اهتمام انكلترة بوادي الفرات ، حيث قام الانكليز بمحاولات عديدة لتمهيد طرق للملاحة في الفرات ومد السكك الحديدية بين البحر الابيض المتوسط وسواحل الخليج في هذا الوادي كما سيأتي بيانه

وكانت سياسة انكلترة في الشرق الادنى أول الامر ، سياسة سلبية انطوت على مقاومة توسع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية ومعارضة النفوذ الفرنسي في مصر ، وكان نفوذ فرنسة قد قوي فيها بسبب اعتماد محمد علي الكبير على الفرنسيين في القيام باصلاحاته . فلما شرع فرديناند دي لسبس يسعى لتحقيق مشروع ترعة السويس الذي أراد نابليون القيام به فاخفق ، قاومته انكلترة مقاومة كادت تودي الى إحباط مساعيه . وبالرغم من ان دي لسبس الذي كان مقرباً لدى الخديو عباس باشا في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ استطاع ان يحصل على امتياز حفر القناة لكنه وجد نفسه مضطراً للحصول على مصادقة السلطان على هذا الامتياز بحكم السيادة الاسمية التي كانت للسلطان على مصر ، فقاومه اللورد ستراتفورد رودكلف ، سفير انكلترة في استانبول ، مقاومة اضطر بسببها ان يعود الى فرنسة ليستعين بالامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة يوجين ، وكان يعتقد انه سينال مناصرتهما اذا ما أظهر لهما ان لهذا المشروع علاقة كبيرة بتعزيز النفوذ الفرنسي في مصر وان انتصار السياسة الانكليزية في مقاومته يؤدي حتماً الى خذلان سياسة فرنسة فيها وفي استانبول ، ولكن الامبراطور والامبراطورة لم يستطيعا الاغلب على انكلترة في هذا الامر ، فاضطر دي لسبس ان يذهب الى لندن ليقنع ساسة الانكليز

ويكتسب تأييد الرأي العام فيها . فقاومه رجال انكلترة مدعين ان المشروع غير قابل للتطبيق من الوجهة الهندسية وانه يحتاج الى مبالغ طائلة لا ينتظر ان تسدّد أرباحها مما يعود به بعد انجازه ، ولأجل ذلك قالوا بان فرنسة لا تريد بهذا المشروع سوى تعزيز نفوذها في مصر[١] .

وقد اهتم الانكليز في هذه الاثناء بانجاز طريق الفرات بقصد صرف نظر أصحاب رؤوس الاموال والرأي العام عن مشروع قناة السويس واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمقاومة نفوذ فرنسة في حالة نجاح المشروع وتعزيز نفوذها في مصر . وبقي طريق الفرات موضوعاً على بساط البحث الى ان تم للانكليز القبض على قناة السويس بشرائهم أسهم الخديو اسماعيل باشا وبايجادهم باباً للتدخل في شؤون مصر بحجة حماية مصالح الدائنين من الرأسماليين الانكليز .

ثم اهمل المشروع حيناً من الزمن حتى عاد الى الوجود في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر حين قيام الحركة العرابية في مصر ، وتقدم نفوذ روسية في تركستان والافغان وفارس . غير ان ظهوره هذه المرة كان قصير الامد ، اذ تنوسي مرة اخرى بخمود الحركة العرابية وتوقف روسية عن التقدم نحو الهند ، وتنوسيت معه مشاريع السكك الحديدية بين اوربا والخليج . الى ان عاد الى الوجود للمرة الاخيرة بمحاولة روسية في أواخر القرن التاسع عشر انشاء سكة حديد تكون نهايتها في الكويت ، وسعي المانية لانشاء

---

(١) Fitzgerold, Percy (The Great Canal at Suez, its Political and Financial History, With an Account of The Struggle of its Projector) in two Volumes. (London 1876)

سكة حديد بغداد .

* * *

كانت أنظار الانكليز قد اتجهت نحو الفرات على أثر المحاولات التي قام بها نابليون لمهاجمة الهند ، لكن اهتمامهم هذا لم يخرج الى حيز العمل الا بعد الربع الاول من القرن التاسع عشر يوم تألفت في انكلترة لجنة لدرس مشروع الفرات . وكانت الحكومة الانكليزية قدأعلمت سفيرها في الاستانة (اللورد ستراتفورد رودكلف) برغبتها في الحصول على معلومات ضافية عن الفرات ، وصادف ان مر باستانبول يومئذ الكابتن جسني أحد ضباط المدفعية البريطانية ، وهو في طريقه الى لندن بعد انجازه بحوثه العسكرية على الحدود الروسية التركية ، فسمع من السفير برغبة حكومته . وكان الضابط شاباً يتعشق المخاطرات والمغامرات فلم يتردد في قبول تولي هذه المهمة ، وتعهد ان يقوم بها على مسؤوليته وحسابه لأن الحكومة لم تكن خصصت لها يومئذ شيئاً من المال .

وصل الكبتن جسني دمشق في تشرين الثاني سنة ١٨٣٠ فسمع فيها بخبر ثلاثة ضباط من الانكليز أرادوا ان ينحدروا في نهر الفرات الى مصبه فهلكوا ولم يقع أحد لهم على أثر . على ان جسني لم يثنه هذا الخبر عن عزمه فانضم الى قافلة كانت سائرة في طريق الفرات حتى وصل الى (عنه) فتمارض واتخذ من هذا التمارض ذريعة للانفصال من القافلة وأقنع بعض أهالي القرية ان ينشؤوا له طوافة ينحدر عليها في الفرات فركبها هو وأربعة من أهالي القرية فيهم مترجم ودليل . وكان يجلس في مؤخرتها وبيده عمود من الخشب ،

طوله عشرة أقدام ، يسبر به غور النهر ليثبت المحلات التي يقل عمقها عن هذا المقياس في مذكرة كانت معه فكان يدون فيها كذلك التفاصيل عن ضفاف النهر وأسماء القرى التي يمر بها وعدد دورها ونفوسها . وقد وصل « هيت » بعد خمسة أيام من يوم مغادرته (عنه) ، ثم وصل « الفلوجة » بعد خمسة أيام اخرى . ووصل بغداد في أوائل سنة ١٨٣١ فاقام في دار الوكيل الانكليزي بضعة أيام رحل بعدها الى البصرة وتوغل في وادي نهر كارون ، وعاد بعد ذلك الى انكلترة يحمل مذكراته وخريطة موجزة لنهر الفرات[١] .

قدم جسني عن رحلته هذه تقريرين وقفت على واحد منهما[٢] ، اما الآخر فقد نوه عنه في تقريره الاول مشيراً الى انه تقرير سري شرح فيه أهمية بغداد والعراق للامبراطورية البريطانية . وقد قابل في تقريره الاول بين طريقي الفرات والبحر الاحمر فقال : ان الاول أقصر من الثاني بمائة وسبعين ميلاً ، وان من فوائد طريق الفرات عدم تعرض السفن فيه لرياح تعوق سيرها كما هو الحال في البحر الاحمر في موسم الرياح الموسمية ، وان السفن في هذا الطريق لا تحتاج الى حمل كثير من الوقود اذ تستطيع ان تحصل على ما تحتاج اليه من الخشب والفحم العادي من القبائل على ضفاف النهر . وذكر

---

(١) خلاصة هذه الرحلة مأخوذة عن :

De Warren, (European Interests in Railways in The Valley of The Euphrates)

اما التفاصيل فموجودة في كتاب جسني عن هذه الرحلة وقد مر ذكره

(٢) The Results of an Examintion of The Red Sea and The Euphrates, Submitted by F. R Chesney, Captain in The Royal Artillary. Feb. 2, 1833

من مساوئها احتمال مهاجمة القبائل للسفن ، وحاجة السفن الى اتخاذ الحيطة الدائمة ، ووجود بعض الشلالات القوية ؛ لكنه رأى ان التغلب على هذه العقبات أمر سهل اذ استرضيت القبائل على ضفتي النهر . وقال انه يرى ان خطر القبائل يزول بتحضرها ؛ ولم يكن ذلك في نظره أمراً عسيراً . وذكر كذلك ان طريق الفرات عدا أهميته التجارية والدفاعية ، يقرب المسافة بين ايران وانكلترة اذا فتح طريق بين الفلوجة وطهران او بين الفلوجة وتبريز .

واهتم الانكليز للأمر فانتخب البرلمان سنة ١٨٣٤ لجنة لدرس المشروع ، وأظهر الملك وليم الرابع رغبة كبيرة في ايصال الهنـــد بانكلترة عن طريق الفرات ، ثم قرر البرلمان ارسال بعثة لدرس الطريق (خصص لها عشرين الف جنيه) بقيادة جسني الذي رقي الى رتبة كولونيل .

وابتدأت البعثة برحلتها في الفرات في ١٦ مارت سنة ١٨٣٦ في باخرتين صنعتا خصيصاً لهذا الغرض وسميتا دجلة والفرات . وصادفت الباخرتين في طريقها زوبعـــة أغرقت الباخرة (دجلة) فوصلت الباخرة (فرات) وحدها الى البصرة بعد ان كابدت المشقات والاهوال لكثرة الشلالات والصخور .

وجاء في تقارير أعضاء البعثة : ان النهر يكون صالحاً للملاحة اذا رفعت منه العوارض الصخرية وأثمن جانب القبائل على ضفتيه بالاتفاق معها ؛ وكان تحقيق كلا الامرين في نظر البعثة سهلاً .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن ، ذكر جملة من أعضاء البعثة ان بعض

قبائل الفرات طلبت الحماية الانكليزية ؛ وكان رأيهم ان من السهل تكوين العلاقات السياسية معها (١).

* * *

وظهر بعد ذلك مشروع وصل الخليج الفارسي بالبحر الابيض المتوسط بسكة حديد . وكان أول من اقترح القيام بهذا المشروع أحد موظفي السكك الحديدية في الهند سنة ١٨٣٠ فلم يستلفت اقتراحه النظر أول الامر . لكن فريقاً ممن أدركوا أهمية المشروع يومئذ جعلوا يبثون له الدعاية ؛ وكان في مقدمتهم السر وليم اندرو الذي الف « شركة سكة حديد وادي الفرات » سنة ١٨٥٦ وعين الجنرال جسني رئيساً للمهندسين فيها . وقد أيده اللورد بالمرستون والسر ستفرد كنغ بقية مقاومة مشروع قناة السويس (٢).

وراجعت هذه الشركة السلطان للحصول على امتياز المشروع فاذن لها بانشاء القسم الاول منه ، وهو القسم الذي اريد مده بين السويدا وحلب . ولكن الشركة عجزت عن جمع المال اللازم للقيام به ، وقد قدر بعشرة ملايين ليرة انكليزية ، بالرغم من الدعاية الواسعة النطاق التي بثتها في الصحف والوفود التي تقدمت بها الى الحكومة الانكليزية ، وهي تضم أعاظم رجال الانكليز ، تطلب المعونة فلم تنل منها غير المماطلة والوعود .

ولعل أهم ما وقف في سبيل نجاح هذه الشركة إحجام أصحاب رؤوس

---

(١) الف عن رحلة هذه البعثة كتب عدة أهمها كتاب جسني الذي مر ذكره وهو كتاب ضخم باربعة مجلدات ؛ ثم كتاب Ainsworth طبيب البعثة بمجلدين وهو :
A Personal Narrative of The Euphrates Expedition.

(٢) De Warren ص ٨ و Earle ص ١٧٦

الاموال عن شراء أسهم المشروع الذي كان في نظرهم محفوفاً بالمخاطر مجهول العاقبة . وكانت الحكومة أول الامر تتظاهر بتأييده ، واهتم البرلمان به فعين لجنة لدرسه ؛ لكن معاضدة الحكومة والبرلمان لم تخرج عن نطاق الكلام اذ انهما رفضا تخصيص مبلغ من المال لمساعدته .

والذي يتتبع البحث الذي جرى في هذا الموضوع يومئذ يرى ان الدوافع للاهتمام به كان أغلبها سياسياً دفاعياً يرجع الى خوف الانكليز من وقوع ما يسبب سد قناة السويس والى فزعهم من تقدم روسية نحو الهند .

اما خوفهم على قناة السويس فقد شرحه السر كارنت ولسلي (Garnet Wollesly) في خطبة ألقاها سنة ١٨٧٨ في إحدى الجمعيات السياسية بلندن حيث قال :

« لقد أشار المستر كوري الى سهولة تخريب القناة ، وانني »
« واثق ان أكثر الحاضرين قد فكروا في هذا الامر »
« تفكيراً جدياً ، فتخريب القناة من أيسر الامور لمن »
« يريد ذلك كما لا يخفى على كل مطلع . فمن السهل »
« سدها باغراق عدد من سفن القناة القديمة وهي ملأى »
« بالحجارة فيها ، كما ان انفجار نسافة فيها وهي بوضع »
« خاص يكفي لقطع طريق المرور منها عدة أشهر أو سنة »
« كاملة . ويجوز ان يعطل طريق السير فيها بادخال سفن »
« تجارية ضخمة واغراقها فيها . ومهما يكن الامر فمن »
« السخف المفرط ان نعتمد على قناة السويس وحدها »

« للاتصال بممتلكاتنا الشرقيـــة وقت الحرب[١] . »

وخلاصة للانكليز ان الخطر يتهدد القناة من ناحيتين : فاما ان ينسفها الثوار المصريون و يقطعوا عنها قناة الاسماعيلية او ان روسية ترسل عدداً من سفنها القديمة فتغرقها فيها عمداً .

وكان فزع الانكليز من روسية يشتد كلما اقتربت الخطوط الحديدية الروسية في تركستان نحو الهند ، لاسيما بعد ان أوصلت روسية تفليس بباكو بسكة حديد فقربت المسافة بين بطرسبرغ وعشقاباد خمسة أيام ، وصارت تمسح تركستان تمهيداً لإقامة الخطوط الحديدية ، وكانت تسعى كذلك الى مد الخطوط الحديدية في بلاد ايران ايضاً ، مما يقرب المسافة بين روسية وهيرات باب الهند .

وخير ما جاء في وصف الخطر الروسي وبيان أهمية سكة حديد وادي الفرات ما نقتطفه فيما يلي من رسالة كتبها البارون فون كوهنفيلد (Kohn Von Kohenfield) رئيس أركان الجيش النمسوي سابقاً[٢] :

« ان روسية لن تتقدم الى الخليج بطفرة واحدة او بحرب »
« طاحنة ، انما سوف تغتنم ارتباك الاحوال في داخل »
« القارة الاوربية عندما تنشغل دول هذه القارة بمعالجة »
« مشاكلها الداخلية ، فتخطو نحو الخليج خطوة أثر »

---

(١) Andrew, The Euphrates Valley Route to India.

(٢) وهي : Kohn Von Kohnenfeild, The Strategic Importance of The Euqhrates Valley Railway. Translated by Sir C. W. Wilson. (London 1873)

« خطوة بفتح قطعة بعد اخرى من ارمينية ، وبالسير على »
« خيوه وبخارى ، وبالاستيلاء على بعض أجزاء المملكة »
« الايرانية .
« وأهم الطرق التي ستتجه أنظار روسية اليها في هـذا »
« الفتح العظيم هي :
« ١ — الطريق بين فارس ووادي الفرات ماراً بالعراق . »
« ٢ — الطريق بين اريفان والعراق عن طريق الموصل »
« في وادي دجلة ماراً ببغداد بعد التقاطع مع الطريق الاول »
« ٣ — طريق تبريز — ششتر .
« ٤ — طريق طهران — ششتر — اصفهان ، ومنها »
« الى الخليج الفارسي .
« واذا قبضت روسـية على الفرات سهل عليها افتتاح »
« سورية وآسيا الصغرى عن طريقي حلب وانطاكية . »
« ومن المعلوم ان وادي الفرات الممتد عرضاً بين رأس »
« الخليج الواقع في شمالي انطاكية ورأس الخليج الفارسي »
« كقطر لجسم رباعي زاويتاه الغربيتان على البحر الابيض »
« المتوسط وزاويتاه الشرقيتان على بحر قزوين والخليج »
« الفارسي ، هو ملتقى جميع هذه الطرق .
« ولذلك فان القبض على هـذا الوادي يؤدي حتماً الى »
« السيطرة على جميع الاراضي الواقعة ضمن الجسم الرباعي »

« الآنف الذكر . فيجب اذاً ان تنحصر مقاصد روسية »
« السياسية والدفاعية في القبض على خط الفرات ، كما »
« يجب ان تكون غاية أعدائها الحيلولة دون وقوع ذلك »
« بكل ما اوتوا من قوة .
« وعلى هذا فان أهمية السكة الحديدية الممتدة في هذا »
« القطر الذي يوصل انطاكية بالخليج الفارسي امر مسلم »
« به ، اذ انها ستكون السبيل الوحيد لتعبئة الجيوش »
« اللازمة في أي لحظة سواءً على الفرات او في القسم »
« الشمالي من أرض الرافدين ، لمهاجمة أطراف الجيش »
« الروسي وايقاف تقدمه .
« وقد يبدو لأول وهلة ان تقدم روسية نحو الشرق »
« لا يهدد غير تركية وايران ، ولكن لا الاولى وحدها »
« ولا الثانية ولا كلتاهما معاً تستطيعان دفع هذا الخطر »
« دون معونة أجنبية ؛ وهذه المعونة لا تتقدم بها غير »
« انكلترة التي لابد ان يقع النزاع بينها وبين روسية على »
« السيادة في هذه الجهة الآن او في المستقبل .
« وسيكون لسكة حديد وادي الفرات في هذا النزاع »
« المنيف من القيمة الحربية ما لا يقدر . وان انشاءها »
« منذ الآن لما يساعد على مقاومة سياسة روسية في آسية ، »
« إذ أن هذه السكة سوف تعزز قوة انكلترة في الشرق »

« وتزعزع المقام السياسي لروسية فيه .

« وان توسع نفوذ روسية يهدد اوربا باجمعها بالاضافة الى »

« الدول الآنفة الذكر ، لأن روسية لابد ان تهاجم »

« القسطنطينية ، محط آمالها ، عند أول تمكنها من آسيا »

« الصغرى ، وان تستحوذ على تجارة البحر الابيض »

« المتوسط وتقبض على برزخ السويس[1] .

« ومهما يكن لقناة السويس من الاهمية لاوربا فانها في »

« منزلة ثانوية بالنسبة لسكة حديد وادي الفرات التي »

« تهيئ السبيل الوحيد لمنع روسية من التقدم في آسيا »

« الوسطى ولحماية قناة السويس .

وكان أنصار مشروع سكة حديد وادي الفرات يدعون ان في جملة منافع هذا المشروع :

١ — انه يوصل البحر الابيض المتوسط بالخليج الفارسي ، ولذلك أهمية كبرى من الوجهتين السياسية والتجارية .

٢ — انه يقصر المسافة بين الهند وانكلترة الف ميل ، ويقلل المدة اللازمة لقطعها من عشرين يوماً الى عشرة أيام .

٣ — انه يسهل القبض على ناصية الامور في الهند بقليل من الحامية فيقلل تكاليف الخزينة .

٤ — انه يوفر على الحكومة مبالغ طائلة من مصاريف نقل جنودها عند

---

(١) وكان مشروع حفرها لم يتحقق بعد

وقوع حادث فجائي في أي فصل من فصول السنة .

٥ – انه يجعل بالامكان نقل الجنود من انكلترة الى الهنـــد في أربعة عشر يوماً .

٦ – انه يهدد مقدمة ومؤخرة أي جيش يتقدم نحو الهند ، ويجعل أمر مهاجمتها واقتحامها أمراً عسيراً .

٧ – انه يمكن انكلترة ، لتقصيره المسافة والزمن وتسهيله المواصلات ، من القضاء على كل حركة عدائية في داخل الهند أو خارجها ، ويعزز نفوذها في اوربا اذ يجعل في استطاعتها استخدام الجيش الهندي هناك .

٨ – انه يضع بقبضة انكلترة أقوى جبهة حربية في العـالم ، ويجعل آسيا الصغرى وايران منطقتي نفوذ لها .

٩ – ان سيطرة انكلترة عليه أمر متيسر اذ ان اسطولها يتسلط على كلتا نهايتيه ، في الخليج الفارسي وفي ساحل البحر الابيض المتوسط ، كما انه بطبيعة موقعه مأمون الجانب اذ يمر بين نهرين عظيمين هما دجلة والفرات .

١٠ – ان الارض التي يمتد فيها صالحة جداً لمد الخطوط الحديدية بحيث ان نفقات مد الميل الواحد منه لا تزيد عن عشرة آلاف ليرة انكليزية ، ولا يربو مجموع المبلغ الذي يحتـــاج اليه المشروع على العشرة ملايين .

وقد أيدت اللجنة البرلمانية في التقرير الذي قدمته عن هذا المشروع الكثير من الفوائد الآنفة الذكر وسجلت في تقريرها أهم المقترحات بشأن

بدايته ونهايته وهي : (١)

١ — ان يبدأ من الاسكندرونة او السويدا ويمر بحلب ويقطع الفرات قرب قصر جابر ثم يمتد محاذياً ضفة النهر اليمنى وينتهي عند الكويت .

٢ — ان يبدأ من الاسكندرونة او السويدا ايضاً على ان يقطع الفرات في بيلس ويمتد محاذياً ضفة النهر اليسرى الى مكان مقابل لبغداد حيث يقطعه ثانية ويسلك الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .

٣ — ان يقطع نهر الفرات في بير ويتجه الى اورفه وديار بكر حتى يصل دجلة فيسير محاذياً ضفتها اليمنى الى بغداد ثم يتجه غرباً حتى يقطع نهر الفرات ويتبع الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .

٤ — ان يمتد على الوجه المذكور في الاقتراح الثالث على ان يحاذي الضفة اليسرى لنهر دجلة .

٥ — ان يبدأ الخط من طرابلس الشام ويقطع الصحراء عن طريق الشام وتدمر الى الفرات ويمتد في احدى الطرق الآنفة الذكر محاذياً للفرات .

وقد ارتأى البعض ان تكون بداية الخط على البحر الابيض المتوسط في الاسكندرونة لصلاحها لرسو السفن ، واعترض آخرون على ذلك لكثرة الامراض في هذا البلد ولوعورة المسالك التي يمر منها الخط الخارج منه . واقترح البعض الآخر ان تكون السويدا بداية الخط بالرغم من ان مينائها غير صالح ، وذلك لخلوها من الامراض .

---

(١) Report of The Select Committee of The House of Commons Dated 22 nd July 1872.

اما نهاية الخط على الخليج الفارسي فقد ارتؤي ان تكون في الكويت او البصرة او المحمرة او خور عبدالله او بوشهر ، الا ان كفة الكويت كانت هي الراجحة واقترح البعض ان يوصل الخط بكواجي .

وارتأت اللجنة ان الخط الذي يمتد محاذياً مجرى الفرات يلائم المصالح الدفاعية ، اما الذي يمتد محاذياً مجرى دجلة ويمر بديار بكر فاكثر ملاءمة للمصالح التجارية .

هذه خلاصة قصة سكة حديد وادي الفرات التي بقيت مداراً للبحث حوالي المائة عام ، وكانت من أهم العوامل التي ساقت بريطانية الى الاهتمام بشؤون الشرق الادنى والخليج الفارسي ، وروجت فكرة حاجة الامبراطورية الى السيطرة على بلاد الرافدين لضمان سلامة أقصر الطرق الى الهند .